بلاغةُ الخطاب الحجاجيّ في استرضائيّات «عمر بن أبي ربيعة»
«دراسة في ثلاث قصائد مُختارة»

أ.د. محمود أحمد الحلحوليّ[1]

المستخلص: هذا بحث يتوسّل بأدوات المنهج الحجاجيّ في تحليل ما اخترتُ من قصائد للشّاعر الأمويّ «عمر بن أبي ربيعة» حدّدتها في ثلاث ممّا يمكن وسمها بـ«الاسترضائيّات» أو من شعر التّذلّل التّقليديّ في العشق، ولا شكّ في أنّ خطاب الاسترضاء يتطلّب انتقاء خاصًّا للألفاظ وتحميلها **طاقة وجدانيّة مكثّفة قادرة على الاستعطاف والاستمالة** ذكيّة للفوز برضىٰ الطّرف الآخر ومراعاة الجانب النّفسيّ للمخاطَب، وقد انطلق البحث من سؤال رئيس هو: ما الخطّة التي تضمّنتها القصائد المعتمدة للفوز بالمحبوبة والظّفر برضاها؟ وقد كشفت مقولات المنهج الحجاجيّ المندرج في «البلاغة الجديدة» عن الأدوات الحجاجيّة التي تؤثّث صياغة إنشاء القصيدة،وكان الحاصل أنّ المنهج الحجاجيّ بصبغته النّظريّة التّحليليّة قادر علىٰ كشف خطط منتج الخطاب وإستراتيجيّاته الإقناعية، وأنّ هذه الإستراتيجيّات لا يمكن لها أن تكون متساوية في قوّة التّأثير؛ لأنّ تأثيرها مرتبط بمدىٰ قربها من الموضوع الأساسيّ أو بعدها عنه، ومرتبط أيضًا بمدىٰ تفاعل المتلقّي معها التّفاعل المشروط وبمدىٰ مقدرته الإبداعيّة والثّقافيّة.

الكلمات المفتاحية: الحجاج، الاسترضاء، السلم الحجاجي، الشعر الأموي، البلاغة.

***

(١) أستاذ النقد الأدبي القديم / الأدب لأموي، بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الهاشميّة.

البريد الإلكتروني: asad@hu.edu.jo

The rhetoric of the liturgical discourse in the theories of Omar Ibn Abi Rabiat "Study in three selected poems"

Dr. Mahmod Ahmad Mohmad Al-halholi

Abstract: The Eloquence of Argumentative Discourse in Three Selected Appeasement Poems by Omer bin Abi Rabia

This research investigates the tools of argumentative approach in the analysis of three selected poems by the Umayyad poet Omar ibn Abi Rabia, the type of poetry described as appeasement or traditional love poetry. No doubt appeasement discourse requires a special selection of emotional words in a smart argument that is capable of winning the satisfaction of the other party and taking into account the psychological side of the addressee, The main question in this study is: What is the plan contained in the chosen poems to win the beloved heart and get her satisfaction? Relying on argumentative approach found in "new rhetoric", this study reveals the argumentative tools that are used to build a poem. The result is that the argumentative approach with its theoretical analytical base is capable of revealing the addressor's persuasive strategies and plans and that these strategies cannot be equally influential as its effect is strongly related to how far or near it is from the major topic. Moreover, it is related to the receiver's conditioned interaction with it and his or her creative and cultural abilities.

Keywords: Argumentation, appeasement, Argumentation ladder, Umayyad poetry, rhetoric.

❊ ❊ ❊

مقدمة

الحمد لله الذي كان بعباده خبيرًا بصيرًا، والصلاة والسلام علىٰ النبي الكريم، وبعد، فيتغيّا هذا البحث التّوقف علىٰ تمثلات الخطاب البلاغي في استراضائيات عمر بن أبي ربيعة، الشّاعر الأمويّ، من منظورات النظريّة الحجاجيّة؛ مُتخذةً قصائدَ ثلاثًا نماذجَ تطبيقيّةً لها، ويختصُّ البحث الآنيُّ بدراسة فاعلية المحمول الحجاجيّ في بنية الخطابِ الشّعري الاسترضائيّ عند عمر بن أبي ربيعة في استرضاء محبوباته، ونيل الرضىٰ من لدنهنّ.

ولعلّ أحد أبرز المسوغات التي تضافرت لإنجاز هذه المقاربة أنّ الباحث لم يعثر -في حدود اطّلاعه - علىٰ دراسة ناجزة متكاملة تناولت الخطاب الاسترضائيّ في الشعر العربيّ عمومًا، أو علىٰ دراسة درست الخطاب الحجاجيّ في استراضئيات عمر بين أبي ربيعة خصوصًا من منظورٍ حجاجيّ.

وفي سياق ذلك فلا بد من القول: إنّ الخطاب - أيًّا يكن جنسه - يقوم علىٰ مقوّماتٍ لغويّةٍ منطقيّةٍ تحقّق عمليّة التّواصل والإفلاح في إيصال الخطاب إلىٰ المتلقّي وضمانِ تفاعله، وتتوقّف قيمة الخطاب علىٰ مدىٰ مقدرته علىٰ إحداث التّأثير في المخاطَب، وتحتاج آليّة قوّة التّأثير إلىٰ مهارات تعبيريّة وملكات لغويّة فضلًا عن مراعاة الجانب النّفسيّ للمخاطَب، وهذه السّمات تكثر في الشّعر الحواريّ الذي يفترض حضور متلقّ مستمع متفاعل مع الحديث كما هو الحال في أغلب شعر «عمر بن أبي ربيعة».

من هنا كانت نظريّة الحجاج عاملًا من عوامل صناعة الخطاب النّاجح والنّاجع؛ فالوظيفة الإقناعيّة التّأثيرية تُعدُّ من أهمّ وظائف النّسيج اللّغويّ لأيّ خطاب، وقد تؤدّي كلمة في غير موضعها أحيانًا إلىٰ أن تقلب المعنىٰ وأن تفضي إلىٰ نتائج عكسيّة، فمراعاة المتلقّي تكون - من ثمَّ - من التّقنيّات التي ينبغي حضورها في أثناء نسج الخطاب، ونشير هنا إلىٰ ضرورة وجود

إستراتيجيّة مقصودة في التّحدّث وإنتاج الخطاب؛ فالمتكلّم يصوغ كلامه وفق إستراتيجيّة خاصّة ومتىٰ تخلّفت هذه الإستراتيجيّة فَشِل الإقناع.

حدود البحث:

يدرس هذا البحث استرضائيّات «عمر بن أبي ربيعة» (ت٩٣هـ) في ثلاث قصائد من ديوانه؛ وقد اختيرت هذه القصائد لما احتوت عليه من حوارٍ، وأحداث كلاميّة، وتداوليّة، وصفات نفسيّة، يمكن أن نتعرّف عليها من خلال القصيدة؛ سواء أكان ذلك يتعلّق بنفسيّة الشّاعر أم بنفسيّة المحبوبة التي كان عمر بن أبي ربيعة يتوجّه إليها بالخطاب، ويسير في ذلك وفق مسلك حجاجيّ.

وقبل الشّروع في تحليل النّصوص الشّعريّة واستنباط الخصائص الحجاجيّة في خطاب الشّاعر رأيت أن أقدّم في إيجاز دالّ المسار العام للنظرية الحجاجيّة في تمهيد نظريّ.

منهج البحث:

يأخذ البحثُ من المنهج الحجاجيّ منهجًا له، استنادًا إلىٰ القدرة المائزة لهذه المنهج علىٰ الكشف عن مظاهر الحجاج في الخطاب.

الدراسات السابقة:

وأما بالنسبة إلىٰ الدراسات السّابقة التي تناولت الخطاب الحجاجيّ بصورة عامة في الخطابين الشعري والنثري، القديم والحديث، فيمكن الإشارة إلىٰ ما يأتي:

- دراسة سامية الدريديّ للشعر العربي الموسومة بـ(الحجاج في الشعر العربي القديم بنيته وأساليبه).

- دراسة محمد عبدالباسط عيد لداليّة عمر بن أبي ربيعة؛ التي مطلعها ليت هندًا أنجزتنا ما تعد، الموسومة بـ(الحجاج في النص الشعري: قراءة في دالية «عمر بن أبي ربيعة»).

وهي دراسات تتقاطعُ وموضوعَ دراستي العامّ، بيد أنّ دراستي تختلف عنها بأنها قامت

علىٰ انتخاب نماذجَ من الشعر الاستراضائيّ عند عمر بن أبي ربيعة، ومن ثم دراستها دراسة حجاجيّة؛ وهو ما لم يدرس من قبلُ في حدود اطّلاعي.

خطة البحث:

ينقسم البحث إلىٰ قسمين:

- القسم الأول: ووسمته بـ(التمهيد؛ المقاربة ومقولاتها).
- القسم الثاني: الموسوم بـ(المقاربة التطبيقية) قصائد استرضائية لعمر بن أبي ربيعة.
- الخاتمة.
- قائمة للمصادر والمراجع.

* * *

القسم الأول

التمهيد: المقاربة ومقولاتها

(١) في النظرية الحجاجية:

الحجاج مصدر الفعل المضعف (حجَّ)، وأحد معانيه الوضوح ومنه أيضًا الحجَّة، والمحجة كما جاء في معجم (العين) هي: «قارعة الطريق الواضح، والحجة: وجه الظّفر عند الخصومة[١]، وقيل: الحُجَّة ما دُوفِعَ به الخصم»[٢]، فتكون الحجة مفرد كلمة (الحجاج)، كما نلحظ في هذه التّعريفات أنّ الوضوح والظّفر أمران متلازمان في (حجج)، فالحجة تحتاج إلىٰ قصد وتحتاج إلىٰ ظفر كي تؤدّي معناها.

---

(١) معجم العين، الفراهيدي، (٣/ ١٠).

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادّة (حجج).

أمّا الحجاج اصطلاحًا؛ فنجد اتّساعًا في استعمال مصطلح الحجاج عند الدارسين، لكنّهم يتّفقون على أنّه يقوم على ثلاثة مقوّمات هي (المتكلّم، والمتلقّي، وعمليّة الإقناع)، وتشكّل عمليّة الإقناع الرّكيزة الأساسيّة في الحجاج، وهي تخاطب العقل بخطاب موجّه له مقصديّة وهدف، و«حيثما وجد خطاب العقل واللغة، فإنّ ثمّة إستراتيجيّة معيّنة نعمد إليها لغويًّا أو عقليًّا، إمّا لإقناع أنفسنا أو لإقناع غيرنا، وهذه الإستراتيجيّة هي الحجاج ذاته»(١). وبذلك يجب أن يكون الخطاب مبنيًّا أساسًا على إستراتيجيّة تواصليّة تهدف إلى الإقناع، وطالما أنّ اللغة هي الميدان الأرحب للتّواصل فإنّ اختلاف الخطابات أدّى إلى اختلاف الحجاج بين خطاب وآخر نظرًا لاختلاف الموضوع والهدف بين الشّعر والنّثر.

ويشكّل المتلقّي الوجهة المقصودة بالإقناع، وهو الجمهور المقصود. وتكثر سمة غياب المرسل إليه في شعر «عمر»، فهو يستخدم وساطة الرّسل ويحمّلهم أشواقه وعتابه(٢)، وهذا في حدّ ذاته يُعدُّ من نوع الجمهور الذي تحدّث عنه أهل الحجاج.

وهنا تبدأ عمليّة التأثّر التي تُعدّ محور نجاح الخطاب الحجاجيّ إذ «لا حجاج بدون وجود جمهور يرمي الخطاب إلى جعله يقتنع، ويسلّم تسليمًا، ويصادق على ما يعرض عليه»(٣)، فيتحوّل الحجاج حسب بيرلمان من عمليّة إقناع إلى عمليّة تأمّل من المتلقّي الذي يمعن في

(١) الحجاج والاستدلال الحجاجي، «عناصر استقصاء نظري»، حبيب أعراب، (ص٩٩).

(٢) هذه سمة واضحة في شعر عمر، كما في قصيدته التي مطلعها:

حيِّ الربابَ، وتربها * أسماءَ، قبلَ ذهابها

ارْجِعْ إِلَيْهَا بِالَّذي * قالتْ برجعِ جوابها

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٤٤).

(٣) الحجاج: أطره ومنطلقاته وتقنياته «مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة» لبيرلمان وتيتيكاه، عبد الله صولة، (ص٣٠٦).

الخطاب ويفكّر فيه ويتفاعل معه. وإنّ هذا ليجعل المهمّة مضاعفة أمام صاحب الخطاب الذي يجب عليه أن ينوّع حججه بتنوّع ثقافات المتلقّين، ونحن لا نعلم علىٰ وجه التّحديد أكانت حبيبة «عمر بن أبي ربيعة» واحدة بأسماء مختلفة لعدم مقدرته علىٰ البوح باسمها جهارًا أم هي متعدّدة. علىٰ أنّ أخبار الشّاعر تقول إنّه ممّن كان يعترض النّساء في الشّوارع، ويتنقّل بينهنّ دون أن يتملّكه الغرام لواحدة بعينها؛ ولذلك تعدّدت مستويات الخطابات وإستراتيجيّاتها بين الأدبيّ والاجتماعيّ، والدينيّ والفكاهيّ والسياسيّ لأنّ «عمر» كان في الأماكن المقدّسة، وهذه المستويات الثقافيّة للمجتمع موجودة كلّها، فتعدّدت تبعًا لذلك وسائل تحليل نصّ «عمر بن أبي ربيعة» ودراساتها وبيان قوانينها، وإنّ هذا أدّىٰ إلىٰ الخروج عن الأطر البنيويّة المغلقة التي كانت تشرح النّصّ من داخله دون الاكتراث لمستوياته السّياقيّة والمقصديّة والزّمنيّة التي أنتجته، فالخطاب الحجاجي خطاب متّسع لكلّ أنساق التّواصل القائمة علىٰ الإقناع ولا يختصّ بميدان دون آخر فيشمل «الشّفويّ والمكتوب الأدبيّ وغيره»[1].

وهو يلحق الشك؛ فأينما وُجد الشّكّ حول موضوع مّا وُجد الخطاب الحجاجيّ، لكنّ الحجاج يختلف عن عبثيّة الشّكّ في أنّه خطاب موجّه ينتج كردّة فعل عن افتراض عدم اقتناع المتلقّي بفكرة أو مجموعة أفكار، فيقوم إذن علىٰ التّخطيط والاختيار الأنسب للوسائل المقنعة. إنّه عمليّة منظّمة ومنسجمة مع الهدف الذي يرمي إليه صاحب الخطاب[2]، وهي عمليّة تأخذ من القول وسيلتها، فالمنطق القوليّ هو الوسيلة التّواصليّة الأقوىٰ في الحجاج، وهو قول مقصود يصوّر «عملًا جادًّا، وليس نوعًا من التّسلية الكلاميّة»[3] لأنّه خطاب عقليّ ناتج عن حيلة وهدف،

(١) البلاغة والحجاج عبر نظرية المساءلة لـ«ميشال ميار»، محمد علي القارصي، (ص٣٩٤).

(٢) ينظر: اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، (ص٢٢٦).

(٣) مفهوم الحجاج عند «بيرلمان» وتطوره في البلاغة المعاصرة، محمد سالم ولد محمد الأمين، (ص٨٠).

وهذا لا يبعد الحجاج عن الشّعر؛ فالشّعر - علىٰ الرّغم من أنّ الخيال يعدّ ركيزته الأساسيّة - إلا أنّ التّفنّن باللّغة بين التّقديم والتّأخير، والحذف، وفنون البلاغة، والتنوّع الأسلوبيّ، واختيار الاستعارات المناسبة والصّور المناسبة وانتقاء الألفاظ الذي يعطي للشّعر بعدًا حجاجيًّا يستحقّ البحث[1]. فمنذ الوهلة الأولىٰ يتبادر إلىٰ الأديب أنّه يكتب لشخص مّا، وهذا الاستدعاء لأيّ إنسان في مدّة الكتابة يجعل للخطاب مقصديّة وهدفًا وخطّة يسير وفقها، وهذا من وسائل الحجاج الذي يقودنا بدوره إلىٰ الإشارة بشكل سريع إلىٰ أهميّة الحجاج في الفنون التي تشغل لغتنا في الشّعر والنّحو.

(٢) ميادين الخطاب الحجاجي:

إنّ اللّغة هي المادّة الأساسيّة للحجاج، ولهذه اللّغة مستويات عدّة. وترجع هذه المستويات إلىٰ نوع الأدب الذي ننشئ؛ فالحجاج في الشّعر - مثلًا - يأخذ ترتيبًا مفاهيميًّا ينطلق من المقدّمات التي تعارفت عليها الجماعة سواء في حركة الاستعارات أو في الأمثال أو فيما اعتادت عليه الجماعة في حياتها المتداولة وما يتطابق مع معتقداتها وفلسفتها في الحياة، فالموروث الثقافيّ الذي ينتشر في جماعة ما يشكّل ركيزة أساسية في تقنيات الحجاج اعتمادًا علىٰ

---

(١) يظهر ذلك في أكثر من موضع في شعر عمر بن أبي ربيعة، كقصيدته التي مطلعها:

أنىٰ تذكرَ زينبَ القلبُ؟؟ * وَطِلاَبُ وَصْلِ غَرِيرَةٍ شَغْبُ

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٤٧)، وقصيدته التي يقول في مطلعها (الخفيف):

مَنْ لِعَيْنٍ تُذْري مِنَ الدَّمْعِ غَرْبَا * مُعْمَلٍ جَفْنُها اخْتِلاجًا وَضَرْبا

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٥١).

وقصيدته التي يقول في مطلعها (الخفيف):

أصبحَ القلبُ قد صحا وأنابا * هَجَرَ اللَّهْوَ وَالصِّبَا والرَّبَابا

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٥٥).

اللغة الطّبيعيّة التي تتيح ذلك[1].

وعلىٰ الرّغم من اتفاقنا علىٰ أنّ الشّعر تعبير حرّ عن مشاعر وأحاسيس فإنّه عند توظيفه للوصول إلىٰ هدف مّا لا بدّ من أن يخضع للسّلطات الاجتماعية والسياسية والثقافيّة علىٰ حدّ سواء، وما هذه إلا «تعليمات وتوجيهات تقدّمها المكوّنات اللغوية للمؤوّل حتّىٰ يتمكّن من الوصول إلىٰ المعلومات المقاميّة الكفيلة ببيان كيفيّة إعادة بناء المعنىٰ الذي قصد إليه القائل»[2] وكأنّ العمليّة بمثابة عقد مبرم بين الطّرفين يتّفقان فيه علىٰ جملة من الأمور وفق القوانين المعمول بها، ويكفي أن نشير هنا إلىٰ قضيّة التحرّر من المقدمة الطّللية وما لاقاه تاركوها من انتقادات بحكم أنّ العرف الإنشائيّ جرىٰ علىٰ ابتداء القصيدة بالوقوف علىٰ الأطلال.

وإنّ هذه السّلطات مقيّدة نوعًا مّا، إلا أنّ الشّاعر الحجاجيّ يستخدمها فنيًّا لتمرير مطالبه وإقناع المتلقّي بما يريد أن يقوله، وقد يلجأ الشّاعر أحيانًا إلىٰ فنون بلاغيّة شعريّة تكثّف من شعريّة القصيدة وتزيد من حجّيّة ما يريد أن يقوله متجاوزًا فكرة الرّبط المنطقيّ التي أقرّها المعجم وتعارف عليها النّاس، سواء علىٰ حركة المفردات داخل النص أو حركة المواضيع التي تناولتها القصيدة لأنّ الحجّة ربما تأتي علىٰ «شكل قول أو فقرة أو نصّ، أو قد تكون مشهدًا

---

(١) يمكن ملاحظة ذلك في عدة قصائد كما في قصيدته التي مطلعها:

طربَ الفؤادُ وهل له من مطربِ * أَمْ هَلْ لِسَالِفِ وُدِّهِ مِنْ مَطْلَبِ؟

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٨٠).

وقصيدته التي مطلعها:

أرسلتْ خلتي إليّ بأنا * قد أتينا ببعض ما قد كتمتا

وبِهِجْرانِكَ الرَّبابَ، حَديثًا * سَوْأَةٌ، يا خَلِيلُ، ما قَدْ فَعَلْتا

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٨٣).

(٢) نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، (ص٣٥٨).

طبيعيًا أو سلوكًا غير لفظيّ إلىٰ غير ذلك، والحجّة قد تكون ظاهرة أو مضمرة بحسب السّياق، والشيء نفسه بالنّسبة إلىٰ النّتيجة والرّابط الحجاجيّ الذي يربط بينهما»[1].وقريب من هذا المعنىٰ لكلمة الحجاج ما نجده عند الفيلسوف ابن رشد الذي يستخدم كلمة المحاججة وهي عنده تثبيت الشيء بالكلام أو ما يظنّ به أنه مقنع[2].

أمّا الحجاج عند الأصوليين فهو البحث في العلاقة بين المنطوق والمفهوم في الجمل، «فعقدوا بابًا للبحث عن معنىٰ يخالف أو يوافق معنىٰ المنطوق من الجمل يسمّونه المفهوم»[3]. ويرىٰ عبد الله صولة أنّ اللسانيّين العرب أخذوا معنىٰ التّعليل من الأصوليّيين بقوله: «وقريب من معنىٰ المفهوم عند الأصوليّيين معناه عند اللسانيّين... وهو ما يستنبط من المنطوق فهو حدث بلاغي مرتبط بمقام القول»[4]. وهذا توصيف دقيق ينظِّر للمسألة من زاويتين: المقام أولًا، والحدث البلاغي ثانيًا، والحجاج يأخذ شكله وآلياته التي تُستخدم للإقناع من المقام ويعبر عن نفسه من طريق الحدث البلاغيّ.

وربط الحجاج بالحدث البلاغيّ من أهمّ الملحوظات التي اتّسع فيها النّظر لاحقًا، فالحجاج نشأ من رحم البلاغة ومن حقول بلاغية ومنطقية ولسانية[5]، فتناولته «البلاغة الجديدة»

(١) اللغة والحجاج، أبوبكر العزاوي، (ص ١٨).

(٢) ينظر: تلخيص الخطابة، ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت٥٩٥هـ)، (ص١٨).

(٣) البحث النحوي عند الأصوليين، جمال الدين مصطفىٰ، (ص٢٧٦). والحجاج عند الأصوليين ليس من اختصاص هذا البحث، ينظر للاستزادة حول فكرة الحجاج عند الأصوليين والعلاقة بين المفهوم والمنطوق: الغزالي (أبو حامد): المستصفىٰ من علم الأصول، بيروت، ١٩٩٣م. وينظر: الحجاج في القرآن أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة. وينظر: أصول الفقه، الخضري (محمد).

(٤) الحجاج في القرآن، عبدالله صولة، (١/ ٣٠٣).

(٥) ينظر: الحجاج والبلاغة الجديدة، إكرام تكتك، (ص٢٣).

في إجراءاتها وعدّته سمة خطابيّة لا يمكن إغفالها، ويمكن ملاحظة العلاقة اللصيقة بين الفنّين من خلال التّعريفات التي وضعت لهما، فالحجاج «هو جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة هي حمل المتلقّي على الاقتناع بما تعرضه عليه أو الزّيادة في حجم الاقتناع»(١). وإنّ التّعويل كما هو واضح هنا على اللغة الطبيعيّة لأنّ المتحدّث مهما تبلغ مقدرته البلاغّية لن يستطيع أن ينزاح عن العلاقات الطبيعيّة بين مفردات اللغة من جهة «الدّالّ والمدلول» وبين مرتكزات العمليّة التّواصليّة بينه وبين المخاطب (العلاقة المنطقيّة الإقناعيّة في التّواصل ضمن الأسرة اللغوية الواحدة) وهي التي تقوم أساسًا على اللغة الطبيعيّة الواضحة المعلومة لدى الطرفين من جهة ثانية.

على حين نجد تعريف «البلاغة الجديدة» بأنّها «نظريّة عامّة للمحاججة بكلّ أشكالها الشّرعيّة والسّياسيّة والأخلاقيّة والجماليّة والفلسفيّة»(٢). فالبلاغة إذن تبحث في الأساليب التي من شأنها أن توصل النّصّ وتبلغه من خلال وسائل الاتّصال التي تتيحها اللغة، فهي «دائمًا متعلّقة بمن وُجّه إليه الخطاب بقصد إقناعه في المواضيع التي يمكن أن ينشغل بها الإنسان كافّة»(٣). ومن الممكن أن يكتب فيها كالفلسفة والخطب الشرعية والسياسية(٤) إذ لا يتعارض هذا

(١) الحجاج في الشعر العربي القديم بنيته وأساليبه، سامية الدريدي، (ص٢١).

(٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ديكرو (أوزوالد)، وستشايفر (جان ماري)، (ص١٦٣).

(٣) الحوار ومنهجية التفكير النقدي، حسان الباهي، (ص١٠١).

(٤) وهذا ما توضّحه الحفريّات التي قام بها العلماء في تأصيل نظرية الحجاج، فمنذ عهد أرسطو يتسع الحجاج ليشمل مناحي الحياة كلها. فأرسطو جعل العلاقة وطيدة بين الحجاج والخطابة والجدل. وممّا لا شك فيه أنّ الخطاب متعدد الموضوعات والجدل أيضا. فاختلاف الرأي حول أية مسألة تؤدي إلى الاعتماد على الحجاج بهدف اثبات الرأي. ينظر: وهبة(مراد): المعجم=

الكلام مع ما احتوته البلاغة من كسر للعلاقات بين الدّالّ والمدلول أو ما يسمّىٰ بـ«الانزياح» بالمفهوم الأسلوبي للتّعبير. فقد عدّ العلماء ظاهرة الانزياح نوعًا من المقدرة علىٰ التّأثير، وذاك أنّ من يمتلك القدرة علىٰ التّفنن في الكلام وتشقيقه يمتلك المقدرة علىٰ الإقناع، فيتحول «الانزياح» من خروج عن القاعدة والمألوف إلىٰ ثوب يجسّد اللغة الفنّية ويصفها وسيلة من وسائل الحجاج[1]. إنّ البراعة في كسر أفق الانتظار لدىٰ القارئ من شأنه أن يؤثر فيه ويجعله يعتقد في ما يقوله صاحب الخطاب، مع الملاحظة أنّ العلاقة من هذه الزاوية بين الحجاج و«البلاغة الجديدة» تبدو أكثر وضوحًا لأنّ البلاغة تهدف إلىٰ إيصال الخطاب والحجاج يهدف إلىٰ إيصال الخطاب وإحداث التأثير في القارئ.

ويرجع الفضل في الإشارة إلىٰ العلاقة الوطيدة بين الحجاج والبلاغة إلىٰ شاييم بيرلمان (Chaim Perelman)، وتيتكا (Tyteca)، حيث أعلنا أنّ «موضوع نظرية الحجاج هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدّي إلىٰ التّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[2]. وهذا التّعريف يتناول عمليّة التّأويل الحجاجيّ كما هو واضح إذ يتحدّث عن إدراك تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تعطي السّمة الحجاجيّة للنّصّ، علىٰ حين ذهب بيرلمان إلىٰ أنّ الحجاج «إذعان العقول بالتّصديق لما يطرحه المرسل، أو العمل علىٰ زيادة الإذعان هو الغاية من كلّ حجاج»[3]. ولا شكّ في أنّ الإذعان الذي تحدّث عنه بيرلمان يرجع إلىٰ وجود الأساليب البلاغيّة النّاجعة التي تتيح للسّمات الحجاجيّة أن تعبر عن نفسها،

=الفلسفي، دار الثقافة الجديدة، مصر، ط٣، ١٩٧٩م، (ص٣٩٣). وينظر: صولة، عبدالله، الحجاج في القرآن، (ص١٤).

(١) ينظر: الأسلوبية والتداولية، مدخل لتحليل الخطاب، صابر حباشة، (ص٣٩).

(٢) الحجاج في القرآن الكريم، عبد الله صولة، (ص٢٧)، نقلاً عن (Traité de l'argumentation, p5).

(٣) استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، (ص٤٥٧).

وهذا هو موضوع البلاغة أساسًا.

وتبعًا لذلك أصبح موضوع الحجاج موضوعَ «البلاغة الجديدة» التي أصبحت تُنظِّر لعدّة سمات موجودة في النّصّ أهمّها «الإعلانية»، و«التناغم»، و«الاستدلال» والبرهنة...)[1]. أمّا ديكرو فقد ابتدع مصطلح «السّلالم الحجاجيّة» في تنظيره الحجاجيّ للنّصوص، ويقصد به النّتيجة المستخلصة من الحجج المقّدمة بداية، فهو يرىٰ أنّ (ن) يجب أن تكون نتيجة للحجج المقدّمة والمتمثلة في (أ)، و(ب)، و(ج)، و(هـ)، و...) وتتدرّج هذه الحجج في النّصّ بحسب قوّتها من الحجّة الضّعيفة الثّانوية إلىٰ الحجّة القويّة الرّئيسة؛ لذلك نراه يعرِّف السّلّم الحجاجيّ بأنّه علاقة تراتبيّة للحجج[2]. وتختلف قوّة الحجّة باختلاف أهمّية الفكرة التي يتحدّث عنها الشّاعر، وباختلاف الحالة السيكولوجية (النفسية والثقافية) للمتلقّي، وذلك بإثارة الجوانب الانفعاليّة والعاطفيّة فيه بمعرفة الحاجات النفسية التي تسيطر علىٰ المتلقي، وكذلك الدّوافع والمعتقدات والمصالح، وأسباب القلق والمخاوف والقيم والآراء والمواقف[3]، وكل ما يمكن أن يؤثّر في شخصيّة القارئ.

وفي الحقيقة فإنّ مفهوم السّلّم الحجاجيّ يكتسب قيمته التّواصليّة من مدىٰ إفادته

(١) يقصد بـ«السّمة الإيحائية» البحث عن الأثر الذي يتركه الخطاب في المتلقي وهو ما يسميه بعضهم بالإعلانية أيضًا والإشهار، ويقصد بـ«التّناغم» منطقية تسلسل الوقائع وترتيب اللغة داخل النص، وإتقان التناغم دليل علىٰ معرفة المتكلم بحال المتلقي، ويقصد بـ«الاستدلال» السياق العقلي الذي يحيط بكل من المتكلم والمتلقي وفق نسق تفاعلي لغوي يهدف إلىٰ الإقناع، ويقصد بـ«البرهنة» وهي تشمل الأمثلة والإقناع والاستدلال وكل ما من شأنه أن يخدم العملية الحجاجية. ينظر: الحجاج في الشعر العربي، سامية الدريدي، (ص٦٢-٧٢).

(٢) ينظر: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، رضوان الرقبي، (ص٩٣).

(٣) ينظر: الإقناع الاجتماعي: خلفياته النظرية وآلياته الاجتماعية، عامر مصباح، (ص٥١).

للإشارات الحجاجيّة، والتي تشير إلىٰ كل الطاقات الإقناعيّة التي تمنحها اللغة والسّياق، وقصد المتكلم، في موقف مّا[1]. وتتفاوت هذه الطاقات في مقدرتها علىٰ التأثير بعدًا وقربًا من الموضوع الأساسيّ الذي يرمي إليه صاحب الخطاب ولاختلاف المستويات الثقافية والإدراكيّة للجمهور، وبعدًا وقربًا من الاستخدام اللغوي للأحداث اللغوية؛ فالعدول عن اللفظ الأساسيّ إلىٰ غيره من الانزياحات التي تلبّيها أسلوبيّة الكاتب من استعارات وتشابيه وبلاغة عمومًا هو ارتقاء من الضّعيف إلىٰ الأقوىٰ في دائرة التّأثير؛ لأنّ الجملة التّالية: (القمر فضّيّ مستدير) هي جملة عادية، لكنّ الانزياح الذي يستعمله الشّاعر في قصديته عندما يصف القمر بقوله: (القمر برتقالة زرقاء) هو عدول وانزياح عن الطبيعيّ، و«عمر بن أبي ربيعة» يستعمل هذه الأساليب[2]. فالسّلّم الحجاجيّ يعمل بطريقة غير مباشرة علىٰ تنظيم الخطاب في شبكة منسجمة لأنّه – أساسًا – يغلّب فكرة تلازم النّتيجة التي يطمح الخطاب إلىٰ إيصالها مع المقدّمة التي حشدها في سبيل ذلك[3].

ويرىٰ «طه عبد الرحمن» أنّ الحجاج علاقة ضمنيّة في الخطاب تقوم علىٰ أساسين (المدّعي/ المعترض)[4]. فالمدّعي هو الذي يشحن خطابه بالأساليب البلاغيّة الحجاجيّة بهدف الإقناع، وهو يفترض وجود معارضين لأنّ المتكلّم لن يلجأ إلىٰ الاقناع في الخطاب إذا حضر متلقٍّ يصدّق كلّ ما يقال له، ومن هنا تأتي أهمّية المتلقّي(المعترض) الذي سيعترض علىٰ

(١) ينظر: الحجاج في اللغة، أبوبكر العزاوي، (ص١٣١).

(٢) ينظر علىٰ سبيل المثال قصيدته التي مطلعها:

نَـأَتْ بِصَدُوفَ عَنْكَ نَوًىٰ عَنُوجُ * وجـنّ بـذكرها القلـبُ اللجـوجُ

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٤١).

(٣) ينظر: نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، (ص٣٦٣).

(٤) ينظر: اللسان والميزان، طه عبد الرحمن، (ص٢٢٥).

الخطاب، وكلّما زاد اعتراضه زادت الوسائل الإقناعيّة في الخطاب[1].

وهذا أمر واضح في الشّعر العربيّ القديم عندما تتعدّد مستويات القصيدة[2]، فنستشفّ الرّاحة النّفسيّة والطّمأنينة وعدم الارتباك في المقدّمة الطللية لأنّها المدخل إلىٰ القصيدة، وهي ممّا تعارف عليه المجتمع؛ حتّىٰ إن احتوت هذه المقدّمة علىٰ أبيات يبثّ فيها مشاعر الحبّ والشّوق، علىٰ حين نجد الحالة النفسيّة المضطربة في الأبيات التي تشكّل محور القصيدة كالأبيات التي قالها امرؤ القيس يعبر فيها عن الليل الطّويل والألم الذي يعانيه، فلا يحتاج إلىٰ وسائل الحجاج إذ تحدث عن الطلل، لكنه احتاج إليها في حديثه عما يعتمل في نفسه من مشاعر الحب والشوق لمحبوبته فاطمة أو مشاعر الحزن والانكسار التي قالها وهو يعاني من الظلم والتشرد، ولا نجد مثل هذا في «استرضائيات عمر» وقد كانت بمثابة رسائل اعتذار، وتجديد

(١) ينظر: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، طه عبد الرحمن، (ص٧٦).

(٢) فلا نجد عند عمر بن أبي ربيعة الالتزام بمذهب محدد، فقد يبدأ قصيدته أحيانًا بالشوق أو العتاب أو الفراق، أو البكاء علىٰ الديار، من ذلك مطلع قصيدته (الطويل):

ألا ليتَ حظي منكِ أنيَ كلما * ذكرتكِ، لقاكِ المليكُ لنا ذكرا

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٦٩).

وقصيدته (البسيط):

قلْ للمليحةِ: قد أبلتنيَ الذكرُ * فَالدَّمْعُ كُلَّ صَبَاحٍ فِيكِ يَبْتَدِرُ

فَلَيْتَ قَلْبي وَفِيهِ مِنْ تَعَلُّقِكُمْ * ما لَيْسَ عِنْدي لَهُ عِدْلٌ وَلاَ خَطَرُ

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٧١).

وقصيدته (البسيط):

يا صاحبيّ، أقلا اللومَ، واحتسبا * في مستهامٍ رماه الشوقُ بالذكرِ

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٧٣).

لعهد الحب مع محبوباته[1].

إنّ الإشارة التي ألمح إليها طه عبد الرحمن تفتح الباب واسعًا لملاحظة الإشارات النفسية التي امتاز بها المتكلّم والمتلقّي معًا لأنّ العلاقة المحدّدة بينهما هي علاقة جدليّة تعدّت مفهوم التّواصل اللغوي البسيط بين متحدّث ومستمع؛ لتصل إلىٰ علاقة التّأثير والتأثّر وقابليّة المتلقّي لأن يتأثّر.

وتمثّل فكرة الادّعاء والاعتراض محور التّواصل الشّعري؛ فالقصيدة التي تثير التّساؤلات لدىٰ المتلقّي؛ فتجعله يقتنع بأشياء ويعترض علىٰ أشياء أخرىٰ هي القصيدة النّاجحة التي تثير التّفاعل وتُدخل المتلقّي في حيّز الجدل الذي تحدّث عنه أرسطو جاعلًا إيّاه مسرح الحجاج الحقيقيّ، ولا داعي لأن يكون الاعتراض بمعناه السّلبيّ هو الذي يشكّل ردّة فعل المتلقّي، فقد يعترض (أي المتلقّي) لسانيًّا علىٰ قناعته في الداخل بما قاله الشّاعر، وهذا حال العشّاق الذين لا يقبلون بالقليل من المشاعر واللهفة والشّوق فتراهم يعترضون علىٰ المحبوب لقلّة لهفته، وهو ما يدفع الشّاعر إلىٰ كثير من التّعبير بطرق حجاجيّة متنوّعة، يعبر فيها عن شوقه وثباته علىٰ العهد.

ويمكن اتّباع الإشارات السّابقة في نظريّة الحجاج لدىٰ تحليل قصيدة «عمر بن أبي ربيعة» التي مطلعها[2]:

---

(١) نجد مثل هذا في قصيدته التي مطلعها (البسيط):

أَبْلِغْ سُلَيْمىٰ بِأَنَّ البَيْنَ قَدْ أَفِدا ❊ وأَنْبِىءْ سُلَيْمَىٰ بِأَنَّا رَائِحونَ غَدا

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٥٢).

وقصيدته (الطويل):

يَقُولُ خَليلي إِذْ أَجَازَتْ حُمُولُها ❊ خَوَارِجَ مِنْ شَوْطَانَ: بِالصَّبْرِ

ينظر: ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص٦٣).

(٢) ديوان عمر بن أبي ربيعة، (ص١٨٣).

أَلِمَّـا بـذاتِ الخـالِ فاسـتطلعا لنـا * علـىٰ العهـدِ بـاقٍ وِدُّهَـا أمْ تَـصَرَّمَا

وكيف عبّر الشاعر عمّا يعتمل في نفسه وإرساله الرسل إلىٰ حبيبته، يسأل عن حبّها ويبلغها أنه ما زال علىٰ عهده ووفائه.

* * *

القسم الثاني

(المقاربة التطبيقية) قصائد استرضائية لعمر بن أبي ربيعة

تقوم قصيدة «عمر بن أبي ربيعة» - كغيرها من القصائد الغزليّة الاسترضائيّة - علىٰ عناصر فنّية تميّز الخطاب الشّعريّ/ الشّعوريّ مثل: الأنا (العاشقة المفتونة)، والآخر الحبيب (المتغزَّل به) في سياق ينسجم مع الحالة الشّعوريّة المعبر عنها لدىٰ الشّاعر، كما تميّزت بالمزاوجة بين الوصف من جهة، وبين السّرد والحوار من جهة ثانية، وإنّ القاسم المشترك بين الخطابين المنجزين هو أنّ الطّرف الأوّل سعىٰ سعيًا حثيثًا إلىٰ إفهام الثّاني ما يجب فهمه، ومحاولة استمالته بشتّىٰ الوسائل، وإثارة عواطفه.

ويمكن تقسيم الخطاب الحجاجيّ في القصيدة موضوع البحث إلىٰ ثلاث دارات:

١ - خطاب «عمر بن أبي ربيعة» إلىٰ محبوبته وحججه.

٢ - خطاب المحبوبة واقتناعها.

٣- خطاب «عمر بن أبي ربيعة» إلىٰ محبوباته.

وكلّ دارة اتّسمت باستخدام تقنيات وأدوات حجاجيّة تتناسق مع الغاية والمقصد اللّذين يطمح كلّ طرف إلىٰ تحقيقهما، ويسعىٰ كلّ منهما إلىٰ التّأثير في الآخر، مع مراعاة الجانب النّفسيّ، ويوجد بين الدّارة الأولىٰ والثّانية فاصل يمكن أن يُعدّ رابطًا حجاجيًّا فريدًا من نوعه.

الدارة الأولىٰ: خطاب «عمر بن أبي ربيعة» إلىٰ محبوبته وحججه:

استخدم الشّاعر في القصيدة سمة إعلانيّة أو إشهاريّة؛ وذلك حين وجّه خطابه إلىٰ محبوبته من خلال (أختيها) اللّتين قد تكونان صديقتيها أو قريبتيها، وفق تناغم ينمّ عن معرفته بحال المتلقّي (ذات الخال/ المحبوبة)، ولا يوجد وسيلة تواصل معها غير ذلك، وهنا يقنع الشّاعر السّامع لقصيدته ويستميله لإتمام النّص إلىٰ نهايته، عبر لمحتين ضمَّهُمَا بيتُ المطلع وهما: الإشارة إلىٰ انغلاق المجتمع، والإشارة إلىٰ موضوع الرّسالة وهو عشق لفتاة في مجتمع محافظ، وإنّ الجوّ المشحون بهذه المعاني حفّز القارئ أن يكمل قراءة القصيدة التي تتمثّل في ذات شاعرة متكلّمة ذليلة متذلّلة تغاير ما ألفناه عنها وفيها من تكبّر ومكابرة، وهذا أوّل استدراج للمتلقّي كي يتأثّر بالنّصّ وينغمس في جوّه.

فالمطلع الشّعريّ عتبة مهمّة في جذب المتلقّي أو نفوره، ولمّا كانت القاعدة تقول إنّه «لا استمالة بلا حجاج، ولا حجاج بلا حوار، فالحجاج عمل حواريّ ينهض علىٰ فكرة استمالة المتلقي»(١)، فإنّنا نجد القصيدة بمثابة بنية حواريّة عميقة بدأت من «عمر بن أبي ربيعة» حين أرسل مَن يبلّغ خطابه إلىٰ محبوبته، وهنا تظهر الأساليب اللغوية التي لا بدّ من استخدامها أيضًا، فكانت صيغة الأمر لهما: **ألمّا** بذات الخال...)، وصيغة الاستفهام لها في قوله:

ألما بذاتِ الخالِ، فاستطلعا لنا * علىٰ العهدِ باقٍ ودّها أم تصرما؟

بعد المطلع نجد الشاعر يستخدم (الحجاج التّقويميّ)(٢)، لذلك لم ينتظر ردّ محبوبته، وبدأ

(١) مستويات الحجاج في النص الشعري: قراءة في دالية عمر بن أبي ربيعة، محمد عبد الباسط عيد، (ص١٨٦).

(٢) يقصد بالحجاج التقويمي: «إثبات الدعوىٰ بالاستناد إلىٰ قدرة المستدلّ علىٰ أن يجرّد من نفسه ذاتًا ثانية يُنزلها منزلة المعترض علىٰ دعواه؛ فها هنا لا يكتفي المستدلّ بالنّظر في فعل إلقاء الحجّة إلىٰ المخاطَب، واقفًا عند حدود ما يوجب عليه من ضوابط وما يقتضيه من شرائط، بل يتعدّىٰ=

بتوجيه خطاب تقويميّ يحاول من خلاله أن يسترضيها سلفًا ويصلح ما أفسده الوشاة، فطلب من (أختيها) أن تقولا لها:

وقــولا لــها: إنّ النّــوىٰ أجـنـبيــةٌ * بنا، وبكم، قد خفتُ أن تَـتَـتَـمَّـمَا
شطــونٌ بأهــواءٍ نــرىٰ أنّ قربـنــا * وَقُرْبَكُمْ، إنْ يَشْـهَـدِ الـنّـاسُ مَوْسِما
وقـولا لهـا: لا تقبلـي قـولَ كاشـحٍ، * وَقـولـي لَـهُ، إنْ زَلَّ: أَنْفُـكَ أُرْغِـمَا
وقـولا لهـا: لـم يـسلنا النـأيُ عـنكمُ، * وَلاَ قَـوْلُ وَاشٍ كَـاذِبٍ إنْ تَـنَـمَّـما
وقـولا لهـا: مـا في العبـادِ كريـمـةٌ * أَعَـزَّ عَلَـيْنـا مِـنْـكِ طُـرًّا وَأَكْرَمَا
وقـولا لهـا: لا تـسمـعـنّ لكـاشحٍ * مَقَالاً، وإنْ أَسْدَىٰ لَـدَيْكِ وَأَلْـحَـمَـا
وقـولا لهـا: لـم أجـنِ ذنبًـا، فتعتبـي * علـيّ بحـقٍّ، بل عتـبتِ تجرّمـا

نلحظ في هذه الأبيات أنّ الشّاعر ارتكز علىٰ أسلوب النّهي والنّفي والتّوكيد من خلال التكرار في تقديم حججه التي دافع بها عن نفسه واحدة تلو أخرىٰ، فبدأ بنفي نيّة البعد (النّوىٰ أجنبيّة)، ولم ينفها عن نفسه فقط بل عن محبوبته أيضًا (بنا، وبكم) ويُلاحظ أنّه فصل حاله عن حالها باستخدام ضمير المتكلم (نا) والمخاطب (كم).

والحقيقة أنّه لا توجد فاصلة، فهو يقول: إنّ النّوىٰ أجنبيّة (بنا)... أمّا بكم أنتم فالوضع مختلف، وأنا أخاف أن تتمّ عندكم وتستملك قلبكم، فالواو (قبل بكم) ليست عاطفة بل هي استئنافية، وهذا المعنىٰ هو الذي دفعه إلىٰ إرسال الرّسول كي يتأكّد من مشاعرها تجاهه،ويجدّد

=ذلك إلىٰ النّظر في فعل التلقّي باعتباره هو نفسه أوّل متلقٍّ لما يلقي، فيبني أدلّته أيضًا علىٰ مقتضىٰ ما يتعيّن علىٰ المُستدَلّ له أن يقوم به، مستبقًا استفساراته واعتراضاته،ومستحضرًا مختلف الأجوبة عليها، ومستكشفًا إمكانات تقبلها واقتناع المخاطب بها». ينظر: اللسان والميزان، أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، (ص٢٢٨).

لها العهد بحبّه، وينتظر ردّها في تجديد العهد من قبلها وألّا تلتفت إلىٰ قول الوشاة، وهنالك ملاحظة أخرىٰ متعلّقة بكلمة (تَـتَـتَـمَّـمَا) التي عبّر بها عن خوفه من دخول الهجر إلىٰ قلب محبوبته علىٰ دفعات متتالية في مدّة طويلة من الفراق باستخدام الوزن (تتفعَّل)، وهو وزن يُستخدم في العربيّة للدّلالة علىٰ التّدرّج في حدوث الفعل، وأنّه لم يحدث دفعة واحدة كقولنا: (تتسلسل، تتشقّق، تتموضع، تتدرّج...)، وهذا أسهم في استمالتها واسترضائها والتأثير فيها، علمًا أنّه خاف - سلفًا - من نجاح الوشاة في تحقيق مرادهم.

ثمّ ينتقل إلىٰ أسلوب النّهي حين طلب من محبوبته ألّا تقبل (قول كاشح) وهو المبغض والمضمر للعداء، حتىٰ لو (زلّ): أي حتّىٰ إن اعتزم إحداث الفرقة والقطيعة، وقد جاء النّهي هنا نتيجة للنّفي سالف الذكر، فهو قد علّل أنّ القطيعة ليست من شمائل العلاقة الرّوحية والوجدانيّة التي تجمعه بمحبوبته، ويطلب منها أن توجّه خطابًا مباشرًا إلىٰ كلّ واش وتقول: (ألصق الله أنفك في التّراب)، وإنّ هذا المعنىٰ هو المباشر، وأمّا المعنىٰ المراد من هذه الكناية فكأنها تقول للواشي: أنا أحبّه وسأبقىٰ أحبّه رغم أنفك فلتمت بغيظك، وهذه ـ لا شكّ ـ خطّة حجاجيّة يقول لها فيها: إنّ النّاس يقولون للواشين دائما: خسئتم، ويعملون بنقيض ما يقوله الواشون كي لا يحقّقوا لهم رغباتهم، فهلّا عملت كما تعمل الناس، وقلت لهذا الواشي: خسئت وفعلت نقيض ما يتمنّىٰ؟ ولكن ما نقيض ما يتمنّىٰ؟ إنّ نقيضه أن تعلن هذه الفتاة حبّها للشّاعر وتبقىٰ علىٰ هذا الحبّ رغم أنف الواشين.

ويُعدّ الدّعاء من الأساليب الإنشائية التي تعبر عن تأثر النّفس بوضع مّا وانفعالها لحدث مّا، بهما يُجسّم الشّاعر إنكاره لمواقف الخصم أو دعوته إلىٰ وقوف مواقف أخرىٰ؛ لذلك اعتبر أولرون (Oleron) مثل هذه الأساليب طرقًا للتّعبير عن القبول أو الرّفض وتحيل في الآن ذاته إلىٰ تدخّل المتكلّم السّافر في الخطاب الحجاجيّ[1]، وقد جاء هذا الدّعاء علىٰ كل كاشح، وعلىٰ كلّ

(١) ينظر: الحجاج في هاشميات الكميت، سامية الدريدي، (ص٢٦٣).

واش، وعلىٰ كلّ كاذب، وعلىٰ كلّ نمّام، وورد كلّ منهم نكرة دلالة علىٰ العموم، فالشّاعر يقصد كل صنف من هؤلاء العذّال بعينه.

وكرّر الشّاعر أسلوب النّفي حين نفىٰ عن نفسه البعد ونيّته فقال: (لم يسلنا النّأي عنكم) كما نفىٰ عن نفسه سماع قول كل (واش كاذب إن تنمّما): أي كل مَن حاول أن يلفّق الأكاذيب والأخبار عن محبوبته، فهو تعرض كمثلها لمحاولات تفريق بينهما؛ لكن حبّه لها أقوىٰ،وكل ما تمر به الآن قد مرّ به سابقًا في حبّه لها؛ لكنه اجتازه وبقي علىٰ حبّها، وهو يطلب منها أن تصنع صنيعه.

إنّ في حركة النّفي هنا تأكيدًا علىٰ مدىٰ الحبّ وعلىٰ مدىٰ الاستمالة والاسترضاء أيضًا، وأكد محبته لها ومكانتها الرفيعة عنده حين وضعها في مقابلة مع (العباد) ورجحانها عليهم، فليسوا (أعزّ علينا منكِ..). وجاءت المقابلة هنا وفق خطّة حجاجيّة تهدف إلىٰ التأثير والإقناع عن طريق التّضخيم والمبالغة، فهو يرىٰ محبوبته أعزّ من أيّ شيء آخر وأكرم.

وكرّر أسلوبية النّهي التي جاءت نتيجة لأسلوبيّة النّفي السّابقة، فهو نفىٰ عن نفسه سماع قول الوشاة وكلّ (كاشح)، ويطلب من محبوبته ألا تصغي لأقوال المراوغين المتقنين لفنون القول والتّفريق، ويعمد إلىٰ تكرار أسلوب النفي المصاحب للحجاج التقويمي حين يقول: (لم أجن ذنبًا فتعتبي... بل عتبت تجرما) فهو يدفع عن نفسه جميع التهم المفترض أن محبوبته تتهمه بها، نتيجة لدخول الوشاة وسماع أقوالهم، ونتيجة البعد وحالة الجفاء بينهما.

إنّ حالة المدّ والجزر بين أسلوبيّة النّفي والنّهي لم تأت جزافًا، بل لعبت دورًا بارزًا في حركة الإيقاع الداخلي للقصيدة؛ فجاء تكرار لفظين في مستهلّ كل بيت: (قولا لها)، ونستشفّ من هذا التّكرار دلالتين نفسيّتين: الأولىٰ: توكيده علىٰ مَن ينقل كلامه أن يبلّغه إلىٰ محبوبته «بنصّه وفصّه»، وخوفه من انزلاق (أختيها) بما انزلق به الوشاة، وأمّا الثّانية: فلهفته عليها، واشتياقه إليها، وولهه للحديث معها.

وعند انتهاء خطابه إلىٰ محبوبته، وتقديم حججه،وردّه علىٰ الوشاة (النّصّ الغائب)، نجد وقفة وصفية تسبق الدّارة التّالية (خطاب المحبوبة واقتناعها)، وتُعدّ هذه الوقفة رابطًا حجاجيًّا في الآن نفسه؛ فالرّوابط الحجاجيّة في أبسط تعريفاتها هي التي «تربط بين قولين أو أكثر، وتسند إلىٰ كلّ قول دورًا محدّدًا داخل الإستراتيجيّة الحجاجيّة العامّة»(١).

ويمكن التّمثيل للرّوابط الحجاجيّة بالأدوات التالية: (بل، لكن، حتىٰ، لاسيّما، إذن، لأنّ، بماأنّ، إذ، ف، ثمّ...إلخ ونذهب - فيما يخصّ هذه الرّوابط - إلىٰ ما هو أشمل وأوسع ممّا ذهب إليه بعض الدارسين حين حصروها بألفاظ وحروف وأدوات معيّنة لتضاف إليها الوقفة الوصفية بين أيّ خطابين من طرفين متخاصمين يحاول الأوّل إقناع الثّاني وتبرئة نفسه، فنحن نطمح إلىٰ معاينة الخطاب أساسًا وكيفية توظيف الحجاج فيه؛ لإدراك توسّع أكثر يستدعي معاينة بلاغة الخطاب وسياقه خصوصًا في الشّعر؛ فالخطاب الشّعريّ يسير وفق اتّجاه واحد حتّىٰ لو تعدّدت الأصوات والرّؤىٰ داخل القصيدة، وأوّل هذه الوقفات في القصيدة قول الشّاعر:

فَقَالاَ لَهـا، فَـآرْفَضَّ فَـيْضُ دُمُوعِهـا، * كما أسلمَ السلكُ الجمانَ المنظّما

تَحَـدُّرَ غُـصْنِ البـانِ لانَـتْ فُرُوعُـهُ، * وَجَادَتْ عَلَيْـهِ دِيـمَـةٌ، ثُـمَّ أَرْهَمَـا

فَلَمَّـا رَأَتْ عَيْنـي عَلَيْهـا، تَهَلَّلَـتْ * مخافةَ أن يـنهـلّ كـرهًا، تبـسّما

ويؤدّي الوصف والتّصوير أدوارًا حجاجيّة متنوّعة؛ فقد يستخدم للإقناع والاستدلال كما يستخدم للتّأثير النّفسيّ عندما يُوظّف للاستعطاف والاسترضاء، أو للتّرهيب والتّرويع، كما يؤدّي دورًا محوريًا في التّرغيب والإغراء والتّقريب، وكلّها وسائل حاسمة في التأثير علىٰ من يوجّه إليه الخطاب(٢). ونتساءل هنا: إلىٰ من يوجّه الشّاعر هذا الخطاب؟ إنّ هذا يحيلنا إلىٰ إجابة

(١) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، (ص٢٧).

(٢) ينظر: الحجاج في الخطابة العربية في صدر الإسلام والعصر الأموي، بدر محمد إبراهيم،=

مرتبطة بعنوان البحث، نعني (الحجاج في استرضائيّات «عمر بن أبي ربيعة»). فنجد أنّ هذه القصيدة بمثابة استرضائيّة لمحبوباته اللّائي تغزّل بهنّ في مسيرته الشّعريّة، وهو لم يحدّد (هندا) أم (ثريا) أم (نُعما)...)، مثلما جرت العادة في غزليّاته، بل جاء الخطاب موجّهًا إلىٰ (ذات الخال)، **وقد لا تخلو أغلب النساء منه،** فهو سمة جماليّة في المرأة عمومًا، وأيّ متغزل بها ربما تظن أنها المقصودة بغزله هذا وقوله!، وهنا نستشف أن الشاعر لعب علىٰ الجانب النفسي والشعوري في تقديم خطابه الاسترضائي وحججه لخبرته العميقة في نفسية المرأة (الأنثىٰ) التي تحب أن يُتغزل بها، وتحب كذلك أن تلمس معاناة الشّاعر وعذابه نتيجة بعدها عنه، وتشعر بالغيرة حين يتغزل بغيرها، ممن تقول كلاما في حبه – بزعمه – أكثر منها.

ونتابع لتوضيح ذلك أكثر تحليلَ الخطاب الشّعريّ/ الشّعوريّ وحججه، فنجد الشّاعر في هذه الوقفة الوصفيّة يقدِّم مشهدًا لمحبوبته حين وصلها خطابُه، وردّة فعلها العاطفيّة/ النّفسيّة التي نقيضتها العلامات الجسديّة، وإنّ التّمثّل العاطفيّ لمضامين الخطاب، واستعمال لغة الجسد لتصديق ذاك التّمثّل يؤدّيان إلىٰ التّأثير في المخاطَب بالاعتماد علىٰ انتقال العاطفة من المخاطِب إلىٰ المخاطَب إذا اتّسق مع الحجج النّصّيّة، وهو ما يمثّل الوصول إلىٰ إقناع المخاطَب إقناعًا تامًّا بنتائج الحجج، أو انتفاء القدرة علىٰ الردّ علىٰ تلك الحجج[1]، وكانت نتيجة الدّارة الأولىٰ (خطاب «عمر بن أبي ربيعة» إلىٰ محبوبته وحججه) أنّ المحبوبة اقتنعت بكلامه وحججه التي قدّمها في الدّفاع عن نفسه أمام أقاويل الوشاة وأكاذيبهم، وأنّ البُعد عنها ليس واردًا عنده.

وأوّل رابط/ عامل حجاجيّ ورد في القصيدة بين خطاب الشّاعر وخطاب الطّرف الثّاني (المحبوبة) هو حرف (الفاء) في قوله: (فقالا لها) أي أنّ خطابه وصل إليها كما هُوَ دون زيادة أو

=(ص٩٨٤).

(١) ينظر: الحجاج في الخطبة النّبويّة، جمعان بن عبد الكريم الغامدي، (ص٢٩٢).

نقصان، وتكرّر حرف (الفاء) في قوله: (فارفضّ)، وجاء التّكرار بوظيفة مختلفة عن الأولىٰ وهي وظيفة أماطت اللّثام عن نتيجة خطابه الذي وجّهه إلىٰ محبوبته ومدىٰ اقتناعها بحججه، فدمعها الذي سال وانتثر متتابعًا شبّهه بالجواهر التي انفرطت لانقطاع السّلك الذي ينتظمها.

ويتابع الشّاعر وقفته الشّعريّة/ الإقناعيّة بوصف حال محبوبته عند سماعها خطابه، فدمعها انحدر بنعومة دون صخب كتحدّر الماء عن غصن بعد أن هطل عليه مطر غزير تواصل فترة طويلة، ولم يرد التّشبيه لغاية تزيينيّة أو تجميليّة بل «يقوم بدور حجاجيّ كبير من خلال تقريب الصّورة إلىٰ ذهن المتلقّي، فيقتنع بالفكرة التي يريد المخاطب توصيلها إليه، وبذلك يظهر دور التّشبيه والإقناع والتأثير في نفسيّة المتلقّي ووجدانه»[1]. فتشبيه دموع المحبوبة بالجواهر الثّمينة دلالة علىٰ قيمتها العالية عنده، ودلالة علىٰ رقّة المحبوبة ونعومتها وحنانها، وحين شبّه الدّموع بمياه الأمطار فذلك دلالة علىٰ كثرتها، فالتّشبيه في هذه الصّور كان له دور إقناعيّ بمدىٰ تأثّر المحبوبة بكلامه واقتناعها، وهذا يؤكّد أنّ الخطاب الشّعريّ في القصيدة بمثابة استرضائيّات لكلّ محبوباته.

وختم الشّاعر وصف حال محبوبته بقوله: (رأت عيني عليها)، وفي ذلك كناية عن إطالة النّظر إليها - مجازًا - وأنّ صورتها لا تفارق خياله،تمثل ذلك في قوله: (تهللت... تبسما) نتيجة وقع عينه علىٰ عينها التي خافت أن تبكي دون إرادتها، وهذا المشهد الخطابيّ لا ينفكّ عن الالتحام بالخطاب الحجاجيّ الإقناعيّ لمدىٰ محبته في قلب المحبوبة رغم بعدها عنه، فهي غير ماثلة أمامه مباشرة بل عن طريق خياله وعواطفه.

وفي اقترابنا من السّلّم الحجاجيّ[2] في القصيدة، نجد أنّ الحجج في خطاب «عمر بن

(١) ينظر: خطاب الحجاج والتداولية دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي، عباس حشاني، (ص٢٩١).

(٢) قدم أزوالد ديكرو (O.Ducrot) مجموعة من المفاهيم والنظريات مثل: السلم الحجاجي، والحجاج داخل اللغة، والحجاج في مفهومه التقني (الفني)، والعوامل والروابط الحجاجية، وفعل=

أبي ربيعة» تسير في خطّ تنازليّ – من أعلىٰ إلىٰ أسفل –، وكذلك الأمر في خطاب المحبوبة، وكانت الحجج ونتائجها عاطفية/ نفسية في المقام الأول، مرتبطة بنبذ أسباب البعد والجفاء، وتكذيب أقوال الوشاة والحسّاد، وتوجيه خطاب استرضائي إقناعي لـ(محبوبته) بأنّه علىٰ العهد لباق، وأنّ حبّه لهنّ أكبر من حبّهن له.

ولتوضيح ذلك حسب السّلّم الحجاجيّ، سنعتمد علىٰ الدّارات الثّلاث كما في الرّسم التّالي:

(الدّارة الأولىٰ)

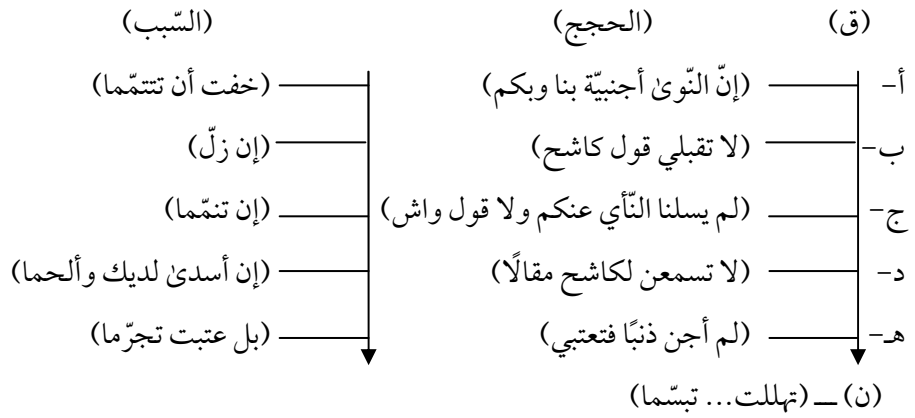

=الاقتضاء، والأفعال اللغوية، وقانون الأنفع أو الأجدىٰ وغيرها، واستثمرها لتحقيق التوجيه الحجاجي للخطاب وصولًا إلىٰ الإقناع المنشود منه. إن الذي يهمنا هنا السلم الحجاجي الذي نبسط معناه في أنّ كل حجة تأخذ فيه مرتبة وفق موقعها في الخطاب، وكل حجة تكون أقوىٰ من التي قبلها بحيث ينتج عن الخطاب جميع الأقوال (ق) دونه أو النقيض، حتىٰ يصل في النهاية إلىٰ النتيجة (ن) النهائية، وهي بطبيعة الحال مرتبطة بمقصدية المرسل/ المتكلم، ومدىٰ أثر الخطاب في المخاطَب. ينظر: آليات الحجاج في مناظرة السيرافي لمتي بن يونس القنائي: دراسة تحليلية، رامي جميل سالم، (ص٢٨٠).

نلاحظ في هذا السّلّم الحجاجيّ أنّ الحجج (ق) كانت تسير في خطّ تنازليّ من أعلىٰ إلىٰ أسفل، ويوازي كلّ حجة سبب تقديمها وتعليل وجودها، وإنّ ذلك يعود إلىٰ ارتكاز الشّاعر علىٰ الحجاج التّقويميّ – كما أسلفنا –، فهو لم ينتظر ردّ المحبوبة علىٰ استفساره عن سبب غيابها وبُعدها، كما نلاحظ أنّها عاطفية نفسية وليست عقليّة أو منطقيّة.

لذلك نجد (ق. أ) جاءت توكيدًا بنكهة نفي نية البُعد، و(ق. ب) نهي للمحبوبة عن الإنصات إلىٰ المبغضين، و(ق. ج) نفي صريح وتبرئة لنفسه من انتزاع البعد له وإنصاته إلىٰ الوشاة، و(ق. د) نهي مباشر عن السّماع لأكاذيبهم، و(ق. هـ) هي الحجّة المركزيّة التي تتفرّع عنها جميع الحجج السّابقة وأقواها، بل هي التي ستتفرّع عنها حجج خطاب المحبوبة، وتعدّ المرتكز الضوئيّ لبناء الخطاب الشعري كلّه، وجاءت علىٰ شكل نفي صريح وتبرئة لنفسه من ارتكاب أيّ ذنب فتعتب عليه وتعاقبه بالابتعاد عنه، وكانت النتيجة (ن) أنّ المحبوبة أسعدها سماع هذا الخطاب فاقتنعت بالحجج من خلال صدق عواطف الشّاعر.

الدّارة الثّانية: خطاب المحبوبة واقتناعها:

بعد أن قدّم الشّاعر حججه ودافع عن نفسه، وبعد وصفه لحال محبوبته حين سمعت خطابه، انتقل (التفت) الخطاب في حركة حواريّة متناقضة من المحبوبة باتّجاه الشّاعر، وأؤكّد حين نحلّل مثل هذه النصوص وجوب التّنبّه إلىٰ أنّ الخطاب مصدره (الشاعر) حتىٰ لو كان فيه أطراف متعدّدة وأصوات مختلفة، فالنّصّ الشّعريّ يتميّز عن النّصّ السّرديّ بأحاديّة العاطفة النّفسيّة حتىٰ لو اختلفت بؤرة الرّؤية ومصدرها، ففي الأبيات اللّاحقة نجد خطابًا من المحبوبة، لكنّه في الحقيقة خطاب من الشّاعر إلىٰ (محبوباته) بهدف نفسي أساسه إثارة الغيرة لديهن عليه، ورفع وتيرة (الأنا) المعتدة بنفسها عاطفيًا، يقول الشاعر:

وقالت لأختيها: اذهبا في حفيظةٍ، * فَزورا أَبا الخَطَّابِ سِرًّا، وَسَلِّما

وقولا له: واللهِ ما الماءُ للصَّدي، * بأشهىٰ إلينا من لقائك، فاعلما

وقولا له: ما شاعَ قـولُ محـــــرشٍ * لـــدي، ولا رامَ الرضـا، أم ترغـمـا

وقـــولا له: إنْ تجـنِ ذنبـًا أَعـُـــدُّهُ * مِـنَ العُـرْفِ إنْ رَامَ الوُشـاة التَّكَلُّمـا

إنّ ما يلاحظ في خطاب المحبوبة وردّها - الذي هو في الأصل استرضاء الشّاعر لمحبوبته - ارتكازه علىٰ نفي جميع الفرضيّات التي بدأت بها القصيدة، وتوكيد حالة الحبّ المتبادل بين الطّرفين، ومن هنا نجد أنّ النّصّ يسير وفق خطّ واحد، وهذا مسلك فريد من نوعه حجاجيًا.

فالمفترض أن يكون هنالك معترض أو مدّع أو طرف مخالف أو مناقض يسعىٰ المخاطِب إلىٰ إقناعه بوجهة نظره، ونعلّل عدم وجود ذلك التناقض نصّيًّا أنّ الخطاب في هذا النّصّ الشّعريّ موجّه إلىٰ من هو خارجه (محبوبته)، وهذا سبب نفي الاتّهامات عن نفسه بسهولة دون الدّخول في غمار جدل فلسفيّ وعقليّ.

لذلك نجد الشّاعر قد ارتكز علىٰ الإقناع العاطفيّ والنفسيّ في استرضائه لها، ومن ثم وجّه أمرًا إلىٰ الوسيط إلىٰ المحبوبة يقضي بضرورة الذهاب (اذهبا)، و**هذا تجاوز لحال التّذلّل الذي انطلق به القصيد، وهو الجانب التّقليديّ فيه وسعي منه إلىٰ استعادة الجانب المكابر فيه وأنّه المطلوب غزليًّا لا الطّالب، وهو المُستحدث في غزل «عمر بن أبي ربيعة» ويطلب من الوسيط** تقديم التّحيّة: (وسلّما)؛ أي التّأدّب في الحديث معها، مع الدّعاء (لأختيها) - الوسيط - بالسّلامة: (في حفيظة) والوصية بضرورة أخذ الحيطة والحذر من أن يراهما أحد، وهذا يؤكّد ما ذهبنا إليه من أنّ الشّاعر لم يكن ينظر إليها وهي تنظر إليه حقيقةً بل مجازًا، واستخدامها لكنية الشاعر (أبا الخطاب) هي ما جرت عليه عادة العرب قديمًا، فكانوا «يَعْدِلُون عن الاسم واللّقب إلىٰ الكُنية قَصْدًا إلىٰ تعظيم المَكْنيّ وإجلاله؛ لأنّ بعضَ النّفوس تَأْنَفُ أن تُذكَرَ باسمِها أو لَقَبها»[1]، وهنا إبراز لنرجسيّة الشّاعر، ورفع لقيمته في نفس (محبوبته) الّتي يسترضيها في قصيدته،

(١) ينظر: شرح قطر النّدىٰ، محمّد محيي الدّين عبدالحميد، (ص١٣٤)، هامش (٢) باب العَلَم.

وبدأ خطاب المحبوبة – المفترض – بالقسم (والله) مرافقًا لصورة فنيّة: (ما الماء للصدي... بأشهىٰ إلينا من لقائك) وفي هذا توكيد نفي نيّة البعد عنها أيضًا؛ فالنفي «هو كالاستفهام يفيد الحجاج بالقصد التلميحيّ؛ فكلّ قول منفيّ هو حجة لإثبات ما يريد المرسل إيصاله للطّرف الآخر، وتأتي حجاجية النّفي من كونه يثبت الحكم الذي يقرّره المرسل ممّا لا يجعل للمتلقي مجالًا للشّك في الحكم المقرّر سابقًا»[1].

وهذا الحكم كان موجودًا في بداية القصيدة مثل خوف الشّاعر من إنصاتها إلىٰ كلام الوشاة الذي نفته بقولها: (ما شاع قول محرّش لديّ...) فهي تنفي سماعها لأقوال الوشاة والمشجّعين علىٰ الخصام والفرقة، وترفض جميع أقوالهم، وتردّ عليهم إذ حاولوا التكلّم بالسّوء عنه، ونقل ذنوبه إليها ويرىٰ أن تقول إن ذنوبه عندها كالمعروف والإحسان عندهم، نكاية بهم، وهنا همز ولمز وتلميح بعيد من الشّاعر لمحبوباته اللّواتي يتمنّىٰ سماع هذا الكلام منهنّ، لذلك جاء بهذا الخطاب علىٰ لسان إحداهن ليستميلهن ويسترضيهن، كأنه يقول لهن: انظرن كيف يكون الحب! وهكذا، فإنّ ما حدث في السّلّم الحجاجيّ الأوّل، قد انسحب علىٰ خطاب المحبوبة الحجاجيّ الذي سار من أعلىٰ إلىٰ أسفل كذلك:

(الدّارة الثّانية)

(ق)

أ- ما... أشهىٰ إلينا من لقائك

ب- ما شاع قول محرّش لديّ

ج- ولا رام الرّضا

د- إن تجن ذنبًا أَعُدُّهُ من العرف

(ن) إيجاد الشاعر فسحة للاسترضاء والتّغزّل

(١) تقنيات الحجاج عند الجاحظ: كتاب العثمانية أنموذجًا، نور الهدىٰ حناوي، (ص٩٨).

فلو قمنا بترتيب الحجج (ق) في السّلّم الحجاجيّ للخطابين لوجدنا أنّهما متوازيان، فالحجّة الأولىٰ (ق. أ) في السّلّم الأوّل تنفي نيّة البعد، وكذلك كانت (ق. أ) علىٰ السّلّم الثاني في خطاب المحبوبة، و(ق. ب) في السّلّم الأوّل كانت نهيًا عن الإنصات لأقوال المبغضين من الوشاة والعذّال، وكذلك كانت (ق. ب/ ج) في السّلّم الحجاجيّ الثّاني، أمّا الحجّة الأخيرة في السّلّم الأوّل (ق. هـ) فكانت موازية للحجّة (ق. د) في السّلّم الثاني تلك التي أكّدت عدم وجود عتب حتىٰ لو اقترف الشّاعر خطأ أو ذنبًا، ومن ثم كانت النتيجة (ن) كما أرادها الشّاعر أن تكون فسحة لبثّ استرضائياته علىٰ مسامع محبوباته حتىٰ نهاية القصيدة.

الدارة الثالثة: خطاب «عمر بن أبي ربيعة» إلىٰ محبوباته:

ختم الشّاعر قصيدته بالردّ علىٰ محبوبته التي حاورها (ذات الخال)، وهذا الرد بمثابة خطاب استرضائيّ مكثّف أسهم في إزالة الغشاوة عن عينها اتجاه جميع الاتهامات التي وُجهت إليه ودافع بها عن نفسه، فبعد اقتناعها بخطابه وحججه، وتأثرها الكبير وردّها الرقيق، أوجد الشاعر بذلك مساحة كافية للتّعبير عن عواطف الحبّ والوفاء المخزونة في داخله، وهذه المشاعر تنسحب علىٰ كل محبوباته وكل مَن تغزل بهن، فيقول:

فقلتُ: اذهبا قولا لها: أنتِ همهُ، * وكبرُ مناهُ من فصيحٍ وأعجما
إذا بِنْتِ بَانَتْ لَذَّةُ العَيْشِ وَالْهَوَىٰ * وَإِنْ قَرُبَتْ دَارٌ بِكُمْ، فَكَأَنَّما
يَرَىٰ نِعْمَةَ الدُّنْيَا احْتَواها لِنَفْسِهِ * يَرَىٰ اليَأْسَ غَبْنًا وَاقْتِرَابَكِ مَغْنَما
فلِمَ تَفضُلِينا في هوىٰ، غيرَ أننا * نرىٰ ودنا أبقىٰ بقاءً، وأدوما

في هذا الخطاب نلحظ أنّ الشّاعر بحث عن قيمة تداوليّة تحمل طاقة تأثيريّة كبيرة ليضيفها إلىٰ نتاجه الغزليّ، تداولها العشّاق من بعده، فبدأ بما أسهم في انسجام الخطاب وزيادة لحمته مع الذي سبقه، وجاء علىٰ شكل ردّ منه علىٰ محبوبته المرادفة له في مشاعر الحبّ والوفاء مؤكّدًا أنّها أعظم الأماني وأجلّها، وهي التي يريدها من بين الخلق جميعًا في قوله:(من فصيح وأعجما).

وارتكز خطابه على أسلوب الشّرط والمقابلة التّصويرية، فمحبوبته إذا ابتعدت (إذا بانت) ابتعدت معها هناءة الحياة ولذّة الحبّ (بانت لذة العيش والهوى)، وإن قربت منه رأى كأنّه احتوى نعم الدّنيا لنفسه.

وختم خطابه بتفضيل حبّه على حبّها وتفوّقه عليها عاطفيًّا عن طريق استخدام أسلوب النّفي (لم تفضلينا) فهي لم تزد عليه في حبّها لأنّ حبّه أكثر بقاءً واستمرارًا ممّا تظنّ، وبهذه الخاتمة تكتمل لوحة الخطاب الاسترضائي الشّعوري والعاطفي الذي وجّهه إلى كلّ محبوباته على أنّه غير محدّد بحادثة معيّنة أو محبوبة مخصوصة.

- بلاغة الاستدلال والاسترضاء في (ميمية١):

تنهض هذه القصيدة على قيم حجاجيّة عاطفيّة (استرضائية) كما هو الحال في القصيدة السّابقة ومردّ هذه الفرضيّة أنّ النّصّ جاء عامًّا غير مُوجّه إلى محبوبة معيّنة، وبدأ الشّاعر خطابه معاتبًا لكلّ لائم تجنّى عليه مبيّنًا للمخاطَب (محبوباته) مدى معاناته بسبب هذا التّجنيّ، ويمكن تقسيم هذا النّصّ الاسترضائيّ إلى دارتين:

- بلاغة الخطاب الاستدلالي.
- بلاغة الخطاب الاسترضائي.

يقوم النّصّ على مبدإ الحوار الذي لم تكن أطرافه موجودة فعليًّا لاعتماد الشّاعر في هذه القصيدة أيضًا على «الحجاج التّقويميّ» لجميع المفاهيم والفرضيّات الخاطئة عنه، ولذلك فهو يفترض وجودها، ويقرّر محاورتها وإقناعها بصدقه معتمدًا في ذلك على أسس التّأثير النّفسيّ والعاطفيّ المستمدّين من بلاغة الخطاب المكثّفة، فمن المنطقيّ أن «يتّكئ النّصّ الحجاجيّ بشكل واضح على مبدإ (الحوار) أو (التّحاور) بين طرفي التّخاطب، وهو ما يضمن حضور الخصم أو حججه في النّصّ، سواء أكان ذلك الحضور إمكانًا قائمًا أم استنباطًا مفترضًا تدلّ عليه

المعطيات المطروحة»[1]. وهذا ما سنوضّحه أثناء التّحليل.

الدارة الأولىٰ: بلاغة الخطاب الاستدلالي:

استهلّ الشّاعر قصيدته باستياء كبير جدًا نتيجة اللوم الذي يتعرّض له دائمًا، وهذا اللوم هو ضريبة التّجنّي عليه من الوشاة والعاذلين، وقام الاستهلال بوظيفة (الاستدلال) التي تعوّل علىٰ السّياق العقليّ المحيط بكلّ واحد من أطراف الخطاب، وذلك وفق نسق تفاعليّ لغويّ يهدف إلىٰ الإقناع؛ يقول الشّاعر:

يلومونني في غير جرم جنيته، * وغيريَ، في كلّ الذي كان، ألومُ
أمنتُ أناسًا أنتمُ تأمنونهم، * فَزَادُوا عَلَيْنا في الحَدِيثِ، وَأَوْهَمُوا
وقالوا لنا ما لم نقلْ، ثم أكثروا * علينا، وباحوا بالذي كنتُ أكتمُ

بدأ الخطاب الشّعريّ بالفعل المضارع (يلومونني) الذي يدلّ علىٰ استمراريّة حدث اللّوم، وجاء في صيغة الجمع للتّفخيم (ظاهريًا) رفعًا لمكانة المحبوبة، علىٰ أنّ هذه النّتيجة لا تتوافق (دلاليًا) والمقاربة الحجاجيّة لأنّ السّياق الاستهلاليّ للقصيدة ليس استرضائيًّا، وإنّما هو استدلاليّ ويهدف إلىٰ تقديم أدلّة علىٰ حالة الظلم التي يعيشها، فالمراد بالجمع (محبوباته) التّأثير في أيّة واحدة يبلغها خطابه هذا، والملاحظ استثمار الخطاب الشّعريّ لعلامة بلاغيّة (التّصدير) لم ترد في مطلع القصيدة - كما نرىٰ - لغاية تزيينيّة أو تجميليّة، بل استخدمها الشّاعر وسيلة حجاجيّة إقناعية ينقل من خلالها مسؤوليّة اللوم عن نفسه إلىٰ مَن هو أحقّ بها، إنّه نفي لارتكابه أيّ ذنب يُعاقَب عليه، فهنالك مَن هو أحقّ بهذا اللوم منه، وعليه تنطبق كلّ الصّفات التي أُلصقت به ظلمًا وافتراءً، علىٰ أنّ الاستدلال دون برهنة يظلّ فعلًا ناقصًا.

لذلك لجأ الشّاعر إلىٰ تقديم براهين وأدلّة وأمثلة تكشف عن أسباب ظلمه؛ فكان أوّل

(١) في حجاج النص الشّعري، محمد عبد الباسط عيد، (ص٤٣).

براهينه حسن نيته حين وثق بأناس لا يستحقّون الثقة وآمن بهم؛ وإنّ ما دفعه إلىٰ ذلك ثقة (محبوبته) بهم، أي العواذل والوشاة الذين يحومون دائمًا حولها، ويكونون قريبين منها، وقد دفع ثمن هذه الثقة حين ألصقوا به تهمًا وأحاديث باطلة لم يقترفها، بل إنّهم - علاوة علىٰ ذلك - «أوهموا» محبوبته باختلاق أحاديث تعضدها أدلّة تُثبّت ما ادّعوا عليه، وإنّ هذا الكلام لينسحب علىٰ كلّ محبوباته، اللّائي كان يعاني معهنّ من وطأة الوشاة وتسلّطهم عليهم جميعًا.

وقد استخدم الشاعر علامة بلاغية أخرىٰ هي (الطباق) في قوله: (باحوا/ أكتم)، ولم تُستخدم هذه العلامة - كسابقتها - لغاية تحسينيّة أيضًا، وإنّما كان هذا الاستخدام أيضًا لغاية حجاجية إقناعية، فالوشاة حين تصيّدوا المحبوبة وحاولوا إقناعها بهجره قاموا بالفعل نفسه مع الشّاعر: و(قالوا لنا ما لم نقل)، أي أنّهم افتروا عليهما (هو/ هي) وتزيّدوا في الحديث، وهو ما دفعه في النّهاية إلىٰ الكشف عن كلّ ما يكتمه عن الوشاة، فهو لا يرغب في التّصريح بذلك لأنّه لا يهتمّ لكلامهم ولا يَعتدّ به، إلاّ أنّ ما وصل إليه من معاناة دفعه إلىٰ البوح مرغمًا، باللّجوء إلىٰ الوظيفة الاستدلالية حين حدّد (أُناسًا) وثق بهم - وجاءت كلمة أناس نكرة للتكثير ولكنّ المحبوبة - تعرفهم معرفة تامّة - وباللّجوء أيضًا إلىٰ الوظيفة البرهانية حين قال: (قالوا لنا ما لم نقل) تأكيدًا منه علىٰ نفي أسباب اللوم في بداية القصيدة؛ ثم جاء بعد الاستدلال والبرهان فاصل سبق خطابه الاسترضائي، وهو بمثابة وقفة شعرية/ وصفية نَعُدّها رابطًا حجاجيًّا مهمًّا جدًّا - كما أسلفنا - لأنّه يسهم في استمالة المُخاطَبِ والتّأثير فيه - وهي وقفة بين خطابين مختلفين دلاليًا وأسلوبيًا. يقول الشاعر:

وقد كُحِلَتْ عيني القذىٰ لفراقكم ❊ وَعَادَ لَهَا تَهْتَانُهَا فَهْيَ تَسْجُمُ

فقد انحصرت الوقفة الوصفيّة/ الشّعريّة الشّعورية في توظيف العلامات الجسديّة - كما في القصيدة الأولىٰ - حين صوّر الشّاعر عينه التي «كُحِلَت» بـ«القذىٰ»، والصّورة كناية عن كثرة السهر الذي يعانيه الشاعر جراء هجرها له، وجاءت مفردة (فراقكم) بصيغة الجمع للتفخيم

(ظاهريًا)، والمقاربة الحجاجيّة تقول إنّ المقصود محبوباته اللاتي يسترضيهنّ (دلاليًا) من النّسق العام للقصيدة، واستمرّ الشّاعر في وقفته حين وصف الدّموع وهي تنسكب من عينه وتسيل بغزارة، وهذه الصورة المأسويّة لها دور كبير في الاستمالة والاسترضاء واللعب علىٰ عواطف المتلقّي والتأثير فيه نفسيًّا.

الدّارة الثانية: بلاغة الخطاب الاسترضائي:

إنّ التّأثير هو المستهدف النّهائيّ من الحجاج، وهو المستهدف النّهائيّ من الاختيارات الأسلوبيّة والبلاغيّة داخل النّصّ التي تبتغي (التّأثير) بمنجزها الجمالي[1] إلىٰ جانب منجزها العقليّ والمنطقيّ؛ ولذلك جاء التّسلسل الخطابي وفق خطة حجاجيّة بدأت بالعتب واللوم وانتقلت إلىٰ تقديم الأدلّة والبراهين من خلال الارتكاز علىٰ (الاستدلال)، ومن الطبيعي أن تنتهي بخطاب استرضائيّ فيه جانب غزليّ، يقول الشّاعر:

فلا تصرميني، إنْ تريني أحبّكم، * أَبوءُ بِذَنْبي، إنَّني أَنا أَظْلَمُ

مُنَعَّمَةٌ، لو دبّ ذرٌّ بجسمها، * لَكَادَ دَبيبُ الذَّرِّ في الجِسمِ يَكْلِمُ

ألَيسَ كثيرًا أن نكونَ ببلدةٍ، * كِلانا بِهَا ثاوٍ، وَلا نَتَكَلَّم؟

بدأ الخطاب بعامل حجاجيّ ثان ربط بين الخطاب (الاستدلاليّ) والخطاب (الاسترضائيّ) بعد الوقفة الوصفيّة/ الشّعرية، وهذا العامل هو حرف (الفاء)، الذي تأتي تفيد، في بعض استعمالاتها، (السّببيّة). وتكمن بلاغة التّوظيف في أنّ هذا الحرف تمّ توظيفه للاستئناف،علىٰ الرغم من أنّه لم يُسبق بحرف (تعليل) أو (دعاء) أو(ترجّ) كما يُشترط نحويًّا، بل سُبق بخطاب (استدلالي) و(برهاني) استدعىٰ من المخاطِب أن ينتقل إلىٰ (نتيجة) نهائية وهي الطّلب من المحبوبة عدم القطع (فلا تصرميني) والجفاء والابتعاد عنه، فكأنّه يقول بناء علىٰ كل

(١) ينظر: في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عيد، (ص٣٧).

ما قدّمه من حجج وبراهين: «عليكِ ألاّ تبتعدي عنّي»، ويقرّ الشّاعر – اعترافًا – باقترافه ذنبًا واحدًا، وهو أنّه مظلوم، وما زال يُظلَمُ، وفي هذا الموضع ينبغي أن نشيد بمدىٰ مقدرة المقاربة الحجاجيّة في فهم دقائق أي خطاب، في النّواحي النّحوية فضلًا عن الجوانب الدّلاليّة والتّأويليّة والنّفسيّة والسياقيّة.

إنّ الجانب الاسترضائي عند «عمر بن أبي ربيعة» يهيمن عليه ما يمكن وسمه بـ«غزليّة الخطاب» التي تصحب كل حجّة وكل دعوىٰ يدافع بها عن نفسه، ونجد هذا جليًّا في قصيدته التي ندرسها حين تغزّل بنعومة محبوبته من خلال استخدام صورة فنية فريدة تتمثل في وصف (الذَّرَّ) الذي لو لامس جلدها لكان له أن يجرحه لنعومتها، وجاءت هذه الكناية/ الصورة لتستميل المحبوبة حسّيًا وعاطفيًّا بعد أن قدّم حججًا وبراهين عقليّة، ومن ثَمّ، ختم الشّاعر قصيدته باستفهام تقريريّ تردّد صداه داخل المخاطَب، مؤكدًا من خلال توظيف هذا الاستفهام رغبته بالوصل بعد الجفاء، وبأن تعود المياه لمجاريها، ومن الناحية النفسية كأنه ينتظر رد فعل المحبوبة بعد سماعها خطابه، وأمّا عن السّلّم الحجاجيّ فنجده مختلفًا عن القصيدة السابقة، ونراه فريدًا من نوعه، إذ يسير بشكل مغاير تقدّمت فيه النتائج عن الحجج والبراهين، لكأنّ الشاعر أراد صدمة المخاطَب والتأثير فيه بصورة قاسية:

(ن) يلومونني في غير جرم جنيته

أ- أمنت أناسًا أنتم تأمنونهم

ب- وقالوا لنا ما لم نقل ثم أكثروا

جـ- باحوا بالذي كنت أكتم

د- كحلت عيني القذىٰ لفراقكم

هـ- إن تريني أحبكم

(ن) أليس كثيرًا أن نكون ببلدة... ولا نتكل

نستنتج من السّلّم الحجاجيّ أن بداية القصيدة وختامها كانا بمثابة نتائج لخطاب ما بينهما، فقد بدأ الشّاعر باللوم الذي تعرّض له؛ ومن ثَمّ قدّم أسباب هذا اللوم ومعاناته، ومن ثَمّ، ختم القصيدة بجفاء المحبوبة وبعدها عنه، وأسباب هذا الجفاء والبُعد نجدها في الخطاب الذي سبقه.

- بلاغة الخطاب النزوعي والتبريري والاسترضائي في (ميمية٢):

نختم باختيار قصيدة جاء خطابها مُلخِّصًا لأسباب استرضائيّات «عمر بن أبي ربيعة» في جميع قصائده التي من هذا النّوع، وهو الهجوم علىٰ كل (كاشح) و(عاذل) و(كذّاب)، يفتري عليه، ويظلمه، ويسهم في التفريق بينه وبين محبوبته - سواء أكانت موسومة معلومة أم نكرة مجهولة - كما في هذه القصيدة التي نحن بصددها، ويمكن أن نقسمها إلىٰ ثلاث دارات:

١- نزوعية الخطاب الاستفهامي وبلاغته.

٢- بلاغة الخطاب التبريري وحجّيته.

٣- بلاغة الخطاب الاسترضائي ونرجسيّته.

الدارة الأولىٰ: نزوعيّة الخطاب الاستفهامي وبلاغته:

استهلّ الشّاعر قصيدته باستفهام إنكاريّ موجّه إلىٰ محبوبته، التي نزعم أنّها ليست واحدة، بل جمعًا يأخذ نفسه باستمالته واسترضائه؛ لأنه لم يحدّد حادثة أو مكانًا أو شخصًا معيّنًا، بل جاء خطابه مبهمًا (سياقيًا)، وعامًّا ليشمل الجميع (دلاليًا)، يقول الشاعر:

أيها العاذلُ الذي لجّ في الهجـ ❋ ـرِ، علامَ الذي فعلتَ، ومما؟

فِيمَ هَجْري، وَفِيمَ تَجْمِعُ ظُلْمي ❋ وَصُدودًا، وَلَمْ عَتَبْتَ وَعَمّا؟

بدأ خطابه بأداة نداء (أي) للقريب مصحوبة بهاء للتنبيه، فهو يخاطب مَن هي قريبة من قلبه بعيدة عن عينه والتي (لجت) أو تمادت في البُعد، وينبّهها مستفهمًا إيّاها عن أسباب الهجر والصدود والعتب ومكثّفًا في ذلك من استخدام أدوات الاستفهام (ممّا/ فيم/ لم/ عمّا)،

وللاستفهام أدوار حجاجية مهمّة، كما سبق أن أشرنا، وله أدوار خطابيّة أسهمت في أداء الوظيفة النّزوعيّة التي تعد «أهمّ هدف للخطاب هو أنّ صاحبه ينزع إلىٰ المتلقّي، وإنما يؤدّي الخطاب هذه الوظائف أداءً صحيحًا إذا استطاع أن يصل المرسل بالمتلقي، فيكون تركيز الخطاب موجّهًا إليه في المقام الأوّل؛ وذلك بإحداث تأثير من نوع مّا علىٰ المتلقّي، ويمثل هذه الوظائف خير تمثيل أبواب متعدّدة في النّحو والبلاغة العربيين، منها: النداء، والإغراء، والتحذير، والأغراض البلاغية، وما تؤديه هذه الأبواب من تطبيقات في السّياقات والمقامات المختلفة»[1]، واجتمع في الخطاب الاستهلالي للقصيدة (النداء) و(التنبيه) و(الاستفهام)، وهي أدوات نزع بها المخاطب إلىٰ المتلقّي مباشرة لاستمالة سمعه وتركيزه،أي إحداث حالة تواصل مباشرة بين طرفي الخطاب (المرسل/ المتلقي).

الدارة الثانية: بلاغة الخطاب التّبريري وحجّيته:

في ضوء هذا العنوان نعاين جانبا مميّزًا من المقاربة الحجاجيّة المتعلّقة بالحجّة تحديدًا ونوعيتها ودورها، وإنّ هذه الحجّة – كما تناولها (تولمن) مبدئيًا بصورة حدسية – تتميّز بوظيفتها التّبريريّة فالحجّة بالنسبة إليه هي كلّ قضيّة نقدّمها للتأكيد، وتكون مصاغة بشكل أو بآخر كأسباب[2]، كما سنوضّح ما ورد في قول الشاعر:

أدلالًا، لـتـتـزيدَ مُحبّـًا، * أم بعـادًا، فتـشعـر القلـبَ همّـا؟
أَيَّمـا أَنْ يكُـونَ، كَـانَ هَـوًىٰ مِنْـ * ـكَ، فـزادَ الإلـهُ فيـه، وتـمَّا
أم عـدوٌّ يمـشي بـزورٍ وإفـكٍ، * كاشـحٌ دبَّ بالنـميـمـةِ لـمّا
يلـفِ عهـدًا نقـضتـهُ بعـدَ وأيٍ، * وَأَسَـاءَ الَّـذي وَشَـىٰ وَأَذَمّـا

(١) الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة، سمير استيتية، (ص١١٤).

(٢) ينظر: تاريخ نظريات الحجاج، بروتون، فيليب وجوتييه، جيل، (ص٦٠).

زعمـــوا أنـــني لغيـــركَ ســـلمٌ، * شـــلّ شـــانيكَ، لا أُحاشـــي، وصـــمّا

نلاحظ في هذا الخطاب أنّ الشاعر وضع عددًا من أسباب ابتعاد محبوبته عنه، وأنّ النيّة الحسنة سبقت نقيضتها في خطابه حين تقدّمت على نظيرتها حين افترض أنّ من أسباب ابتعادها «الدّلال» عليه لتزيد قلبه ولهًا بها، وحزنًا عليها، وحصر النية الحسنة بهذين الافتراضين، فقال: (أيّما أن يكون) بمعنى أيّ شيء كان من هذا القبيل فهو يقبله لأنه يعني أنها تحبّه، ويدعو أن يزيد الله هذه المحبّة في داخله، ويستمر الشاعر في تقديم أسباب ابتعاد محبوبته عنه، ثم يطغى على خطابه النية السيئة على سابقتها حين أطال وفسر وعلّل وبيّن ودعا وارتفعت وتيرة صوته غضبًا من ذلك العدو الذي يمشي بشكل خفي ويهمس ويوسوس بأذن محبوبته بالكذب والبهتان والافتراء عليه ليفرق بينهما، وهذا الشخص من صفاته أنه (كاشح) أي مضمر العداوة له، ويبرر الشاعر سبب هذه العداوة معه، لأنه نكّل به (نقضه) بعد أن كان بينهما اتفاق (عهد)، لكن هذا الواشي بقي يحمل بداخله العداوة للشاعر ويتقصد أذيته بالكذب والافتراء عليه.

ويرى (تولمن) أنّ الحجّة بمثابة خليط مكوّن من قضية وسبب، أو عدّة أسباب تثبتها، وهذا هو ما يجعله يعتقد أنّ الحجة تمارس وظيفة تبريرية أصيلة، وكل وظيفة أخرى لها تبقى ثانوية؛ بل عالة على هذه الوظيفة التبريرية[1]، ونلحظ فيما يخصّ الوظيفة التبريرية أنّ الشاعر برر أسباب ابتعاد محبوبته عنه، ويتطلّع من خلال هذا التبرير إلى استمالتها حين لم يشكّك في حبّها له أو حبّه لها؛ وإنّما أسند هذا الجفاء والبعد إلى مَن له معهما عداوة قديمة، ولم يقف في تبريره عند هذا الحدّ؛ بل برّر أسباب عداوته، ونراه في تبريراته يقوم بدور حجاجي إقناعي حين يقدّم أسباب قضيته الأساسية ليتمكّن من نفيها في النهاية.

ويُذكر في هذا الصّدد أنّ هنالك مَن يرى أنّ «النص الحجاجي ينهض على دعوى واحدة في

(١) تاريخ نظريات الحجاج، بروتون، فيليب وجوتييه، جيل، (ص٦١).

الغالب، هي مركز حجاجه وعلَّة وجوده، إليها تؤوب التفاصيل على اختلافها، وإليها تُرَّد الحجج على تنوعها؛ فهي محرك الخطاب، وهي من ناحية أخرى سبب تماسكه النصي»[1]. وإنّ هذه الدعوى في هذه القصيدة هي نفي لخطاب الوشاة والمبغضين له والرّدّ عليهم، واسترضاء لمحبوبته.

الدارة الثالثة: بلاغة الخطاب الاسترضائي ونرجسيّته:

ختم الشاعر قصيدته بخطاب ينسجم مع مضمون النّصّ الذي سبقه وتسلسله، وهذا أسهم في تماسكه وترابطه الكلّيّ وحرص الشاعر في هذا المقام على حفظ كبريائه لإسهابه في التبرير والتعليل والاستجداء ومحاولة النزوع إلى المحبوبة، يقول:

فـــاتقِ الله في المغيـــبِ، فإنـــــي * حَـــافِظٌ لِلْمَغِيـــبِ، ذَلِـــكَ مَعْمـــــا

لَـــيْسَ يُفْتَـــاتُ ذو المَـــوَدَّةِ عِنْـــدي * ويـــرى الكاشـــحونَ أنفًـــا أشمّـــــا

قَـــدْ رَضِـــينا، وإنْ قَـــضَيْتِ بِجَـــوْرٍ، * فـــاقبلي قـــولَ كاشـــحٍ، أثـــلَ، أمَّـــا

بدأ خطاب الاسترضاء بحرف (الفاء) الذي يفيد الترتيب والتعقيب في سرد الأحداث، وهو إجابة عن السّؤال (لماذا)، ويقدم الحرف التعليلي على سببه وإجابته، دلالة على استعجال الشّاعر في تحقيق ما يرجوه من المحبوبة وهو أن يرقّ له قلبها بتقوى الله وتجنّب ما يعصيه من ظلم وتجنّ، فالشّاعر يتقي الله في حبه لها في غيبتها وعدم حضورها، على الرغم من كل ما يقال عنه، وإنّه ليرجو ذلك منها.

وفيما يتعلق بكبريائه نجده يوظف الكناية توظيفًا فنيًّا رائعًا حفظ له مكانته التي يرجو وجودها في نفوس محبوباته حين قال عن نفسه في مواجهة العذّال: (ويرى الكاشحون أنفًا أشمَّا) وهي كناية عن كبريائه واعتزازه بنفسه، وكذلك مقطع القصيدة الأخير الذي جاء بمعنى:

(١) في حجاج النص الشعري، محمد عبد الباسط عيد، (ص٤٤-٤٥).

قَــدْ رَضِــينا، وإنْ قَــضَيْتِ بِجَــوْرٍ، * فــاقبلي قــولَ كاشــحٍ، أثــلَ، أمَّــا!

ونجد أنّه وفق أية مقاربة سطحيّة فإن هذا التسليم يتناقض تمامًا مع مقصدية النص وهدفه الأساسي الذي بُني من أجل تحقيقه؛ ذلك أن المقاربة الحجاجية تقول إنَّ الشاعر قد لعب على الجانب النفسي/ العاطفي في خطابه الاسترضائي، كأنه يقدّم نفسه إنسانًا فاقد الأمل من اقتناع المحبوبة بكلامه، ويصل إلى درجة اليأس الشديد.

ونُلاحظ عند تتبّع السّلّم الحجاجيّ أن الحجج جاءت تنازلية (من أعلى إلى أسفل)، ونلحظ كذلك أن الشّاعر وضع نتيجة حججه النهائية في موضع مختلف عن القصيدتين السّابقتين، فالنتيجة جاءت ضمن الدارة الأخيرة (بلاغة الخطاب الاسترضائي ونرجسيته) لكنها لم ترد في آخر بيت:

(ق) أيّها العاذل الذي لج في الهجر

أ- علام الذي فعلت ومما؟

ب- فيم هجري... فيم تجمع ظلمي... لم عتبت وعمّا

جـ- أدلالًا... أم بعادًا

د- أم عدو... أساء... وذمّا

هـ- زعموا أني لغيرك سلم...

(ن) اتّق الله في المغيب فإني حافظ للمغيب

إنّ الواضح من هذا السّلّم أنّ الحجج جاءت وفق التسلسل المنطقي مترابطة ومنسجمة، وقد أسهم هذا التسلسل في تماسك النّص ولحمته، بدءًا بنداء للقريب –والبعيد كما وضحنا– عن طريق توظيف الوظيفة النزوعية للاتصال المباشر معه، ومن ثم، قدّم الشاعر تبريرات متسلسلة بدأت بالنية الحسنة بعد ذلك تلاها ما هو سيء يطغى على أجواء القصيدة، ولكنه ختم قصيدته باسترضاء، ونفى عن نفسه جميع التهم الموجهة إليه، واعتمد على الجانب النفسي/

الشعوري للمخاطب، وبعد إعطاء حججه وخطابه قدّم الرجاء من المحبوبة والوشاة باتقاء الله تعالىٰ فيه؛ فهو ملتزم بعهده وحبه لها.

***

الخاتمة

لقد حاول هذا البحث أنْ يستجليَ مظاهر الخطاب الحجاجي في استرضائيات الشّاعر الأمويّ عمر بن أبي ربيعة من منظور حجاجيّ، وقد توصل هذا البحث إلىٰ عدد من النتائج، ومنها:

١- أنّ الدّراسات الحجاجيّة قد أثبتت أنها ما تزال مجالًا بِكْرًا، يحتاجُ إلىٰ غيرِ قليل من الدراسات الجّادة والرّصينة، التي تفيد من معطياتها في دراسة النّصوص؛ شعريّة وسرديّة، قديمة وحديثة، بُغيةَ اكتناه دلالات هذه النصوص، وسبر أغوارها، والقبض علىٰ الرؤىٰ الإبداعية المركوزة في بنياتها.

٢- أنّ الخطاب الشّعريّ الاسترضائيّ عند عمر بن أبي ربيعة، وإن تعدّدت فيه الأصوات، وبؤر الرؤىٰ واحتوىٰ علىٰ حوار، وبنىٰ سرديّة، يبقىٰ منبعه الشّاعر وعواطفه.

٣- أنّ السّلم الحجاجيّ الذي بنىٰ عمر بن أبي ربيعة علىٰ أسٍ منه، تبين أنّه رتّب حججه ترتيبًا خاصًا، راعىٰ خلاله عمر بن أبي ربيعة السّياق الاجتماعيّ، والظروف المحيطة بالمخاطَب.

٤- أنّ هذه القصائد الاسترضائية التي حلّلنا في بحثنا هذا قد بُنيت بطريقة مخاتلةٍ ومرواغةٍ تجعلُ القصيدة وكأنها موجّهة إلىٰ محبوبات عمر بن أبي ربيعة جميعهنّ؛ ليستميلهنّ، ويسترضيهنّ، ويؤكّد علىٰ حبّه لهنّ؛ بصورة تجعلُ كلّ مَنْ تسمع هذه الأبيات سيذهب بها الظّن إلىٰ أنّها هي المقصودة.

٥- أنّ الخطاب الحجاجيّ قد انبثق من الجانب النفسيّ، والشعوريّ للمخاطِب، وارتكز علىٰ الحالة النفسيّة، والشعوريّة للمخاطَب.

٦- أنّ خطاب عمر بن أبي ربيعة الاسترضائي قد تأسس علىٰ الاسترضاء وفقًا لخططٍ حجاجيّة معيّنة؛ مما نأىٰ بخطابه هذا عن التّعليل والتّبرير الزّائدين والمتكلّفين، والدّخول في سجالات عقلية أوفلسفية، فطغىٰ - انسجامًا مع لذلك - الهدفُ الإقناعيُّ العاطفيُّ الذي لم يكن للمحبوبة داخل القصيدة؛ بل للمحبوبات خارجها، وقد لاحظنا أيضًا أنّ الشاعر جرّد من نفسه ذاتًا ثانية ووضعها محلّ محبوبته، وبدأ في سجالها مستبقًا الرّدّ، وبذلك يكون قد حقّق نوعًا من الحجاج الذي يسمىٰ بـ(الحجاجَ التّقويميّ).

٧- أنّ عمر بن أبي ربيعة قد نجح من الناحية اللغوية في انتقاء الأساليب والأدوات المناسبة، في سبيل إقناع المحبوبة بضرورة عدم سماع الوشاة، ويمكن لنا- بوصفنا متلقّين- لهذا الحوار الشّعريّ؛ بين عمر وذات الخال-مثلًا-، أن نلاحظ الفكرة الرئيسة في القصيدة وهي: (تجديد العلاقة بين العاشقين)، فبعد شعور عمر بجفاء محبوبته له بفعل الواشين؛ نجد أنه تعامل مع الموقف بحذر وفق فكرتين: الأولىٰ توضيح اللبس الحاصل بينهما بعد أن عكّر الوشاة علاقتهما، والثاني حثُّها علىٰ تجديد أسباب الحبّ بينهما، فهو يسترضيها من خلال تبيان الحقيقة لها، استنادًا إلىٰ خطة كلامية وألفاظ مناسبة صاغها الشّاعرُ بطريقةٍ محددةٍ؛ ابتغاء الوصول إلىٰ رضىٰ محبوبته.

التوصيات:

١- ضرورة الالتفات إلىٰ الإفادة المنهجية والعلمية من منجز الدراسات الحجاجيّة في دراسة الخطابين الشعريّ والسردي، القديم والحديث.

٢- دراسة نماذج من شعر عمر بن أبي ربيعة ونماذج من شعر النقائض ومن شعر المتنبي دراسة حجاجية تداوليّة.

***

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم.

(١) الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله. الرقبي، رضوان، مجلة عالم الفكر، المجلد٤٠، العدد ٢، ٢٠١١م.

(٢) استراتيجيات الخطاب: مقاربة لغوية تداولية. الشهري، عبد الهادي بن ظافر، ط١، ٢٠٠٤م، سور الأزبكية، الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا.

(٣) الإقناع الاجتماعي: خلفياته النظرية وآلياته الاجتماعية. مصباح، عامر، ط١، ٢٠٠٥م، المطبوعات الجامعية، الجزائر.

(٤) آليات الحجاج في مناظرة السيرافي لمتي بن يونس القنائي: دراسة تحليلية. سالم، رامي جميل، المجلة الأردنية في اللغة العربية وآدابها، الأردن، المجلد١٠، العدد ٣، ٢٠١٤م.

(٥) البحث النحوي عند الأصوليين. مصطفىٰ، جمال الدين، ط١، ١٩٨٠م، دار الرشيد للنشر، بغداد، العراق.

(٦) تاريخ نظريات الحجاج. بروتون، فيليب جوتييه جيل، ترجمة: محمد صالح ناحي الغامدي، ط١، ٢٠١١م، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، جدة، السعودية.

(٧) تقنيات الحجاج عند الجاحظ: كتاب العثمانية أنموذجًا، حناوي، نور الهدىٰ، مجلة التراث العربي، المجلد ٣٢، ٢٠١٤م، سوريا.

(٨) تلخيص الخطابة. ابن رشد، أبو الوليد محمد بن أحمد (ت٥٩٥ه)، تحقيق: عبد الرحمن بدوي، ط١، ١٩٦٧م، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

(٩) الحجاج في الخطابة العربية في صدر الإسلام والعصر الأموي. إبراهيم، بدر محمد، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد ١٠٠، ٢٠١٧م.

(١٠) الحجاج في الخطبة النبوية. الغامدي، جمعان بن عبد الكريم،، مجلة جامعة أم القرىٰ لعلوم اللغات وآدابها، العدد ١٠، ٢٠١٣م.

(١١) الحجاج في الشعر العربي القديم بنيته وأساليبه. الدريدي، سامية، ط١، ٢٠١١م، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.

(١٢) الحجاج في القرآن عبر أهم خصائصه الأسلوبية. صولة، عبدالله، ط١،٢٠٠١م تونس.

(١٣) الحجاج في هاشميات الكُميت. الدريدي، سامية، مجلة حوليات الجامعة التونسية، ع٤٠، ١٩٩٦م.

(١٤) الحجاج والبلاغة الجديدة. تكتك، إكرام، مجلة الحقيقة، العدد(٣١) ٢٠١٤م.

(١٥) الحوار ومنهجية التفكير النقدي. الباهي، حسان، ط٤، ٢٠٠٤م، دار أفريقيا الشرق، المغرب.

(١٦) خطاب الحجاج والتداولية، دراسة في نتاج ابن باديس الأدبي. حشاني، عباس، ط١، ٢٠١٤م، عالم الكتب الحديث، الأردن.

(١٧) الخطاب السّجالي في الشعر العربي: تحولاته المعرفية ورهاناته في التواصل. يوسف، عبدالفتاح أحمد، ط١، ٢٠١٤م، دار الكتاب الجديد، بيروت.

(١٨) الخطاب في الدراسات اللسانية الحديثة. استيتية، سمير شريف، الموسم الثقافي الواحد والثلاثون لمجمع اللغة العربية الأردني، ٢٠١٣م.

(١٩) ديوان عمر بن أبي ربيعة. تحقيق: محمد فايز، ط١، ٢٠٠٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

(٢٠) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام. عبد الرحمن، طه، ط٢، ٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

(٢١) في حجاج النص الشعري. عيد، محمد عبد الباسط، ط١، ٢٠١٣م أفريقيا الشرق، المغرب.

(٢٢) القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان. ديكرو (أوزوالد) / ستشايفر (جان ماري)، ترجمة: منذر عياشي،، ط٢، ٢٠٠٧م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

(٢٣) لسان العرب. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل، جمال الدين، ط٣، ١٤١٤هـ، دار صادر، بيروت.

(٢٤) اللسان والميزان. عبد الرحمن، طه، ط١، ١٩٩٨م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

(٢٥) اللغة والحجاج. العزاوي، أبو بكر، ط١، ٢٠٠٦م، الدار البيضاء، المغرب.

(٢٦) مستويات الحجاج في النص الشعري: قراءة في دالية «عمر بن أبي ربيعة». عيد، محمد عبدالباسط، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، المجلد ٣٤، العدد ١٣٥، ٢٠١٦م.

(٢٧) معجم العين. الفراهيدي (الخليل بن أحمد)، تحقيق: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج٣ (د. ت).

(٢٨) المعجم الفلسفي. وهبة، مراد، ط٣، ١٩٧٩م، دار الثقافة الجديدة، مصر.

***

List of Sources and References

(1) Ibn Rushd, Abu Al-Walid, edited by: Abd al-Rahman Badaw, 1967 AD, 1st Edition, *Talkhis alkhataba*, the Egyptian Renaissance Library, Cairo.

(2) Jamal al-Din, Muhammad bin Makram bin Ali Abu al-Fadl, Ibn Manzur, *Lisan Al Arab*, 1414 AH, 3rd Edition, Beirut, Dar Sader.

(3) Al-Bahi, Hassan, 2004 AD, 4th Edition, Alhiwar wa Manhajiat attafkir alnaqdi, Morocco, East Africa House.

(4) Bruton, Philip Gautier Gil, translated by: Muhammad Saleh Nahi Al-Ghamdi, 2011 AD, 1st Edition, Tarikh Nazariat Alhajjaj, Jeddah, Saudi Arabia Scientific Publishing Center, King Abdulaziz University.

(5) Hashani, Abbas, 2014 AD, Khitab Al-Hajjaj wa Tadawlia: Dirasa fi Nitaj Ibn Badis Aladabi. 1st Edition, Jordan, the Modern World of Books.

(6) Drideeri, Samia, 2011 AD, 1st Edition, *Al-Hajjaj Ashi?r Alarabi Alqadim, Binitah wa Asalibah*, Irbid, Jordan, Modern Book World.

(7) Decro (Oswald) / Schieffer (Jean Marie), translated by: Monther Ayachy, 2007 AD, 2nd Edition *Alqamoos Almawso?i Aljadid fi Elm Alkalam*, Casablanca, Arab Cultural Center.

(8) Al-Shehri, Abdul-Hadi Bin Dhafer, 2004 AD, 1st Edition, Istrategiat Alkhittab, Dirasa Lughawia Taqabulia, Benghazi, Libya, Sur Al-Azbakeya, The New Book.

(9) Soula, Abdullah, 2001 AD, 1st Edition, *Al-Hajjaj fi Alquran ?abra Ahamma Khasaissahu Aluslobia*, Tunisia.

(10) Abdel-Rahman, Taha, 1998 AD, 1st Edition, *Allisan wa Almizan*, Casablanca, the Arab Cultural Center.

(11) Abdel-Rahman, Taha, 2000 AD, 2nd Edition, *Fi Usol Alhiwar wa Tajdid Elm Alkalam*, Casablanca, the Arab Cultural Center.

(12) Al-Azzawi, Abu Bakr, 2006 AD, 1st Edition, *Allugha wa Hajjaj*, Casablanca, Morocco.

(13) Edited by: Muhammad Fayez, 2004 AD, 1st Edition, *Diwan Omar bin Abi Rabia*, Beirut, Lebanon, Arab Book House.

(14) Eid, Mohamed Abdel-Basit, 2013 AD, 1st Edition, *Fi Hajjaj Annas Ashi?ri*, Morocco, East Africa.

(15) Al-Farahidi (Al-Khalil bin Ahmed), edited by: Mahdi Al-Makhzoumi, Ibrahim Al-Samarrai, *Mu?jam Al?in*, Al-Hilal House and Library, Part 3 (D.T).

(16) Mesbah, Amer, 2005 AD, 1st Edition, Aliqna? Alijtima?i: Khalfiatu Alnazariah wa Aaliatah Alijtima?ia, Algeria, University Publications.

(17) Mustafa, Jamal al-Din, 1980 AD, 1st Edition, Albahth Annahwi Inda Alossoliin, Baghdad, Iraq, Dar Al-Rashid Publishing.

(18) Wahba, Murad, 1979, 3rd Edition, *Almu?jam Alphalsaphi*, Egypt, House of New Culture.

(19) Youssef, Abdel-Fattah Ahmed, 2014 AD, 1st edition, *Alkhitab Asijali fi Ashi?r Alarabi: Tahawlath Alma?rfia wa Rihanatuh fi Attawasul*, , Beirut, Dar Al-Kitaab Al-Jadeed.

(20) Ibrahim, Badr Muhammad, 2017, Al-Hajjaj fi Alkhataba Alarabia fi Sadar Alislam wa Alasr Alamawi., Cairo University, Issue 100, Journal of the Faculty of Science House.

(21) Ticktek, Ikram, 2014 AD, *Al-Hajjaj wa Alblagha Aljadida*, Al-Haqiqa Magazine, Issue (31).

(22) Hinnawi, Noor Al-Huda, 2014 AD, Taqniat Alhajjaj Inda AlJahiz Kitab Alothmania, Syria, No. 32. Arab Heritage Magazine.

(23) Estetia, Samir Sharif, 2013 AD, *Alkhitab fi Addirasat Allisania Alhaditha*, The Thirty-One Cultural Season of the Jordanian Arabic Language Academy.

(24) Drideeri, Samia, 1996 AD, *Al-Hajjaj fi Hashemiyat alKumit,* Vol. 40, Annals of the Tunisian University.

(25) Al-Raqbi, Radwan, 2011 AD, *Alistidlal Alkhattabi Al-Hajjaji wa Aaliatih*, Volume 40, Issue 2, The World of Thought Magazine.

(26) Rami Jamil, 2014 AD, Aaliat Alhajjaj fi Munazarat Assirafi Limata bin Yonus AlQinnai: Dirasa Tahlilia, , Jordan, Volume 10, Issue 3, The Jordanian Journal of Arabic Language and Literature.

(27) Eid, Muhammad Abdul Basit, 2016 AD, *Mustawaiat Al-Hajjaj fi Annas Ashi?ri*: *Qiraa fi Daliat "Omar Ibn Abi Rabia",* Kuwait, Volume 34, Issue 135The Arab Journal for the Humanities.

(28) Al-Ghamdi, Jamaan bin Abdul-Karim, 2013 AD, *Al-Hajjaj fi Alkhutba Annabawia* Umm Al-Qura University Journal of Language Sciences and Literature, Issue 10.

❋ ❋ ❋